فى الرد على فكر التكفير عند المخالفين

مختارات
من تراث السلف

إعداد

الأستاذ الدكتور
أحمد عبدالرحيم السايح

المستشار
توفيق علي وهبة

يوزع مجاناً

تبدأ دعوات الإصلاح بروح صوفية تدعو إلى تزكية

النفس وتطهيرها والتصدي للفساد والانحراف

وحينما تختلط بالدنيا وتبدأ الغنائم

لا يلبث القائمون عليها في استغلال الدعوة

لتبرير استئثارهم بالسلطة ونفيهم للآخر

وشعارهم هو من ليس معنا فهو علينا

وبالتالي فهو كافر ومشرك

ومستباح المال والعرض والدم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، نحمده ـــ سبحانه وتعالى ـــ حمدا كثيرا طيبا ونصلـــي ونسلم على الرسول الصادق الأمين محمد رسول الله خاتم الأنبيـــاء والمرســـلين وعلى آله وصحبه أجمعين .

فهذه (مختارات من تراث العلماء) رأى كثير من العلماء الباحثين أنها تشـــير في وضوح إلى رؤية علماء الأمة المخلصين في مواجهة الغزو الغنوصـــي، الـــذي يعمل على بلبلة الأفكار واضطراب الأمن والمجتمع .

وقد يكون واضحا أن عقائد المسلمين ـــ كما جاءت في القرآن الكـــريم ـــ واضحة وبينة. ولكن هؤلاء الغنوصيين أحدثوا شرخا كبيرا في مجتمعات الأمة بما شغلوا به الشباب والناس من أمور من شأنها أن تبعد الناس عن النهج المســتقيم. فانصرف الناس عن العمل الجاد، والإنتاج المفيد للمجتمعات والإنسانية .

ويبدو واضحا، للمتأملين في حركة الحياة أن الفكر الإرهـــابي مـــن أخطـــر الأفكار التي أضرت بالأمة الإسلامية والمجتمعات الإنسانية .

والفكر الإرهابي هذا، هو وليد طبيعي لأفكار غنوصية باطنية اســـتطاعت أن تتسلل إلى المجتمعات باسم الإسلام والسنة والسلفية .

وإذا كان إبليس دخل مع أفراد من العرب في تآمرهم على الرسول ﷺ حين بعثته في صورة شيخ نجدي ، فإن هؤلاء الغنوصيين يدخلون المجتمعات في تـــآمر على المسلمين في صورة إسلامية، وشكل إسلامي .

ولذلك يرى أهل العلم أن التيارات الإرهابية التي زعزعت استقرار المجتمعات تحتاج إلى مواجهة تصحيحية، أي إبراز ما قاله علماء الأمة في تلك المسائل التي شغل بها هؤلاء الناس .

إن الأمة يجب أن تدرك أن ما جاء به هؤلاء الإرهابيون من إنكار التوسل، وزيارة القبور، وحب الصالحين، والأولياء، مخالف لكل مبادئ الإسلام وتعاليمه.

وعلماء الأمة الإسلامية قديما وحديثا، كانوا يحرصون على كل ما من شأنه إن يؤدي إلى تصحيح المفاهيم، وأمن المجتمع، حتى تظل المسيرة في طريقها الصحيح. ولذا رأينا أن نختار مختارات من تراث علماء الأمة الإسلامية لنقدمه إلى القارىء المسلم، ليتبين الطريق، ويدرك أن الغزو التكفيري والتبديعي الذي أصيبت به المجتمعات المختلفة من أخطر ما تواجهه الأمة في مسيرتها .

وإن الأمة التي تلتف حول قادتها وعلمائها لابد وأن تتقدم في مسيرة الحضارة، ومعالم العلاقات الإنسانية، ولابد أن تكون حريصة على القيم والثوابت التي جاءت بها تعاليم ومبادئ الإسلام .

وما نختاره ونقدمه للقارئ الكريم، هو نموذج من النماذج المختارة التي أخذناها عن سلف الأمة مثل الشيخ يوسف النبهاني والشيخ السيد أحمد دحلان مفتي الشافعية بمكة المكرمة وعدد من فقهاء وعلماء المذاهب الأربعة ممن صححوا المسيرة، ودافعوا عن الأمة .

نسأل الله التوفيق ..

إنه سميع قريب مجيب

أ . د / أحمد عبد الرحيم السايح　　　　المستشار/ توفيق على وهبة

الفصل الأول
شواهد الحق
في الاستعانة بسيد الخلق

قال الإمام ابن حجر في الجوهر المنظم : من خرافات ابن تيمية التى لم يقلها عالم قبله وصار بها بين أهل الإسلام مثله، أنه أنكر الاستعانة والتوسل به صلى الله عليه وسلم، وليس ذلك كما أفتى به، بل التوسل به حسن فى كل حال قبل خلقه وبعد خلقه فى الدنيا والآخرة. فما يدل لطلب التوسل به صلى الله عليه وسلم قبل خلقه وأن ذلك هو سير السلف الصالح الأنبياء والأولياء وغيرهم، فقول ابن تيمية ليس له أصل من افترائه: ما أخرجه الحاكم وصححه أنه صلى الله عليه وسلم قال: [ولما اقترف آدم الخطيئة قال يا رب أسالك بحق محمد صلى الله عليه وسلم إلا ما غفرت لى . قال الله يا آدم كيف عرفت محمداً ولم أخلقه ؟ . قال يا رب خلقتنى بيدك ونفخت فىّ من روحك. رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوباً: لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال له صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلى وإذ سألتنى بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد ما خلقتك] والمراد بحقه صلى الله عليه وسلم رتبته ومنزلته لديه تعالى، أو الحق الذي جعله الله سبحانه وتعالى له على الخلق، أو الحق الذي جعله الله تعالى بفضله له عليه كما فى الحديث الصحيح [قال فما حق العباد على الله] لا الواجب ؛ إذ لا يجب على الله تعالى شيء ، ثم السؤال به صلى الله عليه وسلم ليس سؤالا له حق يوجب اشتراكا، وإنما هو سؤال الله تعالى بمن له عنده قدر على ومرتبة رفيعة وجاه عظيم. فمن كرامته صلى الله عليم وسلم على ربه أن لا يخيب السائل به والمتوسل إليه بجاهه، ويكفى فى هوان منكر ذلك حرمانه إياه. وفى حياته صلى الله عليه وسلم ما أخرجه النسائى والترمذى وصححه "أن رجلا ضريرا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال أدع الله لى أن يعافينى، فقال إن شئت دعوت

وإن شئت صبرت وهو خير لك قال فادعه" وفى رواية [ليس لى قائد وقد شق عليّ] فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: [اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربى فى قضاء حاجتى لتقضي لي اللهم شفعه في] وصححه أيضاً البيهقي وزاد [فقام وقد أبصر].

وفى رواية "اللهم شفعه في، وشفعني في نفسي" وإنما علمه النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ولم يدع له لأنه أراد أن يحصل منه التوجه وبذل الافتقار والانكسار والاضطرار مستعيناً به صلى الله عليه وسلم ليحصل له كمال مقصوده، وهذا المعنى حاصل في حياته وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم: ومن ثم استعمل السلف هذا الدعاء في حاجاتهم بعد موته صلى الله عليه وسلم، وقد علمه عثمان بن حنيف الصحابي رواية لمن كان له حاجة عند عثمان بن عفان زمن إمارته بعده صلى الله عليه وسلم وعسر عليه قضاؤها منه وفعله فقضاها، رواه الطبرانى والبيهقى وروى الطبراني بسند جيد [أنه صلى الله عليه وسلم ذكر فى دعائه بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي] .

ولا فرق بين ذكر التوسل والاستعانة والتشفع والتوجه به صلى الله عليه وسلم أو بغيره من الأنبياء وكذا الأولياء ، وذلك لأنه ورد جواز التوسل بالأعمال كما فى حديث الغار الصحيح مع كونها أعراضاً فالذوات الفاضلة أولى، ولأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه توسل بالعباس رضى الله عنه فى الاستسقاء ولم ينكر عليه، وكأن حكمة توسله به دون النبى صلى الله عليه وسلم وقبره إظهار غاية التواضع لنفسه، والرفعة لقرابته صلى الله عليه وسلم ، ففى توسله بالعباس توسل بالنبى صلى الله عليه وسلم، وزيادة لا يقال لفظ التوجه والاستعانة يوهم أن المتوجه والمستغاث به أعلى من المتوجه والمستغاث إليه لأن التوجه من الجاه وهو علو المنزلة، وقد يتوسل بذى الجاه إلى من هو أعلى جاها منه، والاستعانة طلب الغوث والمستغيث يطلب من المستغاث به أن يحصل له الغوث من غيره، وإن كان ذلك الغير أعلى منه، فالتوجه والاستعانة به صلى الله عليه وسلم وبغيره ليس لهما معنى فى قلوب المسلمين غير ذلك ولا

يقصد بهما أحد منهم سواه. فمن لم ينشرح صدره لذلك فليبك على نفسه، نسأل الله العافية، والمستغاث به فى الحقيقة هو الله تعالى والنبي صلى الله عليه وسلم واسطة بينه وبين المستغيث فهو سبحانه مستغاث به والغوث منه خلقاً وإيجاداً، والنبي مستغاث والغوث منه سبباً وكسباً ومستغاث به مجازاً، وبالجملة فإطلاق لفظ الاستغاثة لمن يحصل منه غوث ولو سبباً وكسباً أمر معلوم لا شك فيه لغة وشرعاً فلا فرق بينه وبين السؤال، لا سيما مع ما نقل أن فى حديث البخاري رحمة الله تعالى فى الشفاعة يوم القيامة [فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم].

وقد يكون معنى التوسل به صلى الله عليه وسلم طلب الدعاء منه إذ هو حى يعلم سؤال من يسأله وقد صح فى حديث طويل : [إن الناس أصابهم قحط فى زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فجاء رجل إلى قبر النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا، فأتاه صلى الله عليه وسلم فى النوم وأخبره أنهم يسقون فكان كذلك، وفيه ائت عمر فأقرئه السلام وأخبره أنهم يسقون، وقل له: عليك الكيس الكيس : أى الرفق لأنه رضى الله عنه كان شديداً فى دين الله فأتاه فأخبره فبكى، ثم قال يا رب ما آلو إلا لما عجزت عنه]. وفى رواية أن رائى المنام بلال بن الحارث المزنى الصحابى رضى الله عنه .

فعلم أنه صلى الله عليه وسلم يطلب منه الدعاء بحصول الحاجات كما فى حياته لعلمه بسؤال من سأله كما ورد مع قدرته على التسبب فى حصول ما سئل فيه بسؤاله وشفاعته صلى الله عليه وسلم إلى ربه عز وجل ، وأنه صلى الله عليه وسلم يتوسل به فى كل خير قبل بروزه لهذا العالم وبعده فى حياته وبعد وفاته.

وكذا فى عرصات القيامة فيشفع إلى ربه، وهذا مما قام الإجماع عليه وتواترت به الأخبار . وصح عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال [أوحى الله تعالى إلى عيسى صلوات الله على نبينا وعليه سلامه : يا عيسى آمن بمحمد ومر من أدركه من أمتك أن يؤمنوا به، فلولا محمد ما خلقت آدم، ولولا محمد ما خلقت

الجنة والنار، ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب، فكتبت عليه : لا إلـه إلا الله محمد رسول الله فسكن] فكيف لا يتشفع ويتوسل بمن له هذا الجاه الوسيع والقدر المنيع عند سيده ومولاه المنعم عليه بما حباه به وأولاه. انتهى كلام ابن حجر .

وقال الإمام السبكى بعد ذكر حديث آدم الذي فيه [أسألك بحق محمد لما غفرت لى] وقول الله تعالى له [وإذ سألتنى بحقه فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك] الحديث، هو حديث صحيح الإسناد رواه الحاكم . قال وذكر معه الحاكم حديث ابن عباس أوحى الله إلى عيسى .. الخ . وقال الحاكم هذا حديث حسن صحيح الإسناد .

قال الإمام السبكى بعد ما ذكر ، وأما ما ورد من توسل نوح وإبراهيم وغيرهما من الأنبياء فذكره المفسرون واكتفينا عنه بهذا الحديث لجودته وتصحيح الحاكم له، وعبارة ابن حجر السابقة وإن كانت كافية وافية فلا بأس من ذكر بعض ما ذكره الإمام السبكى وإن تكرر بعضه مع ما تقدم عن ابن حجر رحمهم الله تعالى لأنه نقل كثيرا من عباراته وإن لم ينسب بعضها إليه .

قال الإمام السبكى : اعلم أنه يجوز ويحسن التوسل والاستعانة والتشفع بالنبى صلى الله عليه وسلم إلى ربه سبحانه وتعالى، وجواز ذلك وحسنه من الأمور المعلومة لكل ذى دين المعروفة من فعل الأنبياء والمرسلين وسير السلف الصالحين والعلماء والعوام من المسلمين، والتوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم جائز فى كل حال قبل خلقه وبعده فى مدة حياته فى الدنيا وبعد موته، فى مدة البرزخ وبعد البعث، فى عرصات القيامة والجنة، وهو على ثلاثة أنواع : أن يتوسل به صلى الله عليه وسلم بمعنى أن طالب الحاجة يسأل الله تعالى به أو بجاهه أو ببركته ، فيجوز ذلك فى الأحوال الثلاثة، وقد ورد فى كل منها خبر، صحيح ، ولا فرق فى المعنى بين أن يعبر عنه بلفظ التوسل أو الاستعانة أو التشفع، والداعى بذلك متوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم. لأنه جعله وسيلة لإجابة الله دعاءه، ومستغيث به صلى الله عليه وسلم لأنه استغاث الله تعالى به صلى الله عليه وسلم على ما يقصده ، ومستشفع به صلى الله عليه وسلم لأنه سأل الله بجاهه صلى الله عليه وسلم.

والمقصود جواز أن يسأل العبد الله تعالى بمن يقطع أن له عند الله تعالى قدراً ومرتبة.

ولا شك أن النبى صلى الله عليه وسلم له عند الله تعالى قدر علىّ ومرتبة رفيعة وجاه عظيم، وفى العادة أن من كان له عند الشخص قدر بحيث إنه إذا شفع عنده قبل شفاعته، فإذا انتسب إليه شخص فى غيبته وتوسل بذلك يشفعه به وإن لم يكن حاضراً ولا شافعاً ويكون ذلك المحبوب أو العظيم سبباً للإجابة كما فى الأدعية الصحيحة المأثورة [أسألك بكل اسم لك ، وأسألك بأسمائك الحسنى، وأسألك بأنك أنت الله ، وأعوذ برضاك من سخطك ، ومعافاتك من عقوبتك ، وبك منك] . وحديث الغار الذي فيه الدعاء بالأعمال الصالحة، وهو من الأحاديث الصحيحة المشهورة، فالمسئول فى هذه الدعوات كلها هو الله وحده لا شريك له، والمسئول به مختلف، كذلك السؤال بالنبى صلى الله عليه وسلم ليس سؤالا للنبى[1]، بل سؤال لله تعالى به صلى الله عليه وسلم، وتارة يكون المسئول به أعلى من المسئول كما فى قوله [من سألكم بالله فأعطوه] فالمسئول به هنا هو البارى سبحانه وتعالى، والمسئول هو بعض البشر.

وتارة يكون المسئول أعلى من المسئول به كما فى سؤال الله تعالى بالنبى صلى الله عليه وسلم، فإنه لا شك أن للنبى صلى الله عليه وسلم قدرا عنده تعالى ، فمن قال أسألك بالنبى صلى الله عليه وسلم فلا شك فى جوازه وكذا إذا قال بحق محمد، والمراد بالحق الرتبة والمنزلة ، والحق الذي جعله الله على الخلق ، أو الحق الذي جعله الله بفضله له عليه كما فى الحديث الصحيح الذي قال فيه [فما حق العباد على الله] وليس المراد بالحق الواجب فإنه لا يجب على الله تعالى شيء، ثم ذكر أحاديث الشفاعة والتجاء الناس إلى الأنبياء .

قال : وفى التجاء الناس إلى الأنبياء فى ذلك اليوم أدل دليل على التوسل بهم فى الدنيا والآخرة؛ وأن كل مذنب يتوسل إلى الله عز وجل بمن هو أقرب إليه منه، وهذا لم ينكره أحد، ولا فرق بين أن يسمى ذلك تشفعا أو توسلا أو استغاثة.

---

(1) هذا تخريج لطيف لعل المتشككين يفهمون المقصود. فالإجماع منعقد على أن الدعاء والسؤال لله وحده (أمّن يجيب المضطر إذا دعاه) فالدعاء لله والإجابة منه سبحانه وتعالى .

ليس ذلك من باب تقرب المشركين على الله تعالى بعبادة غيره فإن ذلك كفر، والمسلمون إذا توسلوا بالنبى صلى الله عليه وسلم أو بغيره من الأنبياء والصالحين لم يعبدوهم ولا أخرجهم ذلك عن توحيدهم لله تعالى وأنه هو المنفرد بالنفع والضر، وإذا جاز ذلك جاز قول القائل : أسأل الله تعالى برسوله لأنه سائل لله تعالى لا لغيره، انتهت.

وقد جمعت ذلك من أماكن متفرقة من كتاب الإمام السبكى (شفاء السقام : فى زيارة خير الأنام عليه الصلاة والسلام)، وهو مشهور مطبوع من أراده فليراجعه. وقال السيد السمهودى فى خلاصة الوفا : ولا فرق فى ذلك بين التعبير بالتوسل أو الاستغاثة أو التوجه به صلى الله عليه وسلم فى الحاجة، وقد يكون ذلك بمعنى طلب أن يدعو كما فى حال الحياة، إذ هو غير ممتنع مع علمه بسؤال من يسأله صلى الله عليه وسلم، وتقدم مثله فى كلام ابن حجر .

فقد ظهر من هذا أن استغاثة المستغيثين به صلى الله عليه وسلم تجئ على معنيين: أحدهما أن يسأل المستغيث الله تعالى بالنبى صلى الله عليه وسلم أو بجاهه أو بحقه أو ببركته أن يقضى حاجته، فالمستغيث على هذا هو الذي يدعو الله تعالى ويجعل واسطة القبول عنده عز وجل نبيه الأعظم وحبيبه الأكرم صلى الله عليه وسلم. والمعنى الثانى أن يسأل المستغيث النبى صلى الله عليه وسلم ليدعو الله تعالى وليسأله قضاء حاجته لأنه حى فى قبره كما يسأله الناس الشفاعة يوم القيامة فيشفع لهم، وكما سأله الناس فى حياته الدنيوية الدعاء بالاستسقاء وغيره فدعا لهم بالسقيا وغيرها فاستجاب الله له ، وجميع الاستغاثات الواقعة فى كتابى هذا لا تخلو عن هذين المعنيين، ورأيت فى كتاب (جمع الأسرار : فى منع الأشرار ، عن الطعن فى الصوفية الأخيار) لسيدى العارف بالله الشيخ عبد الغنى النابلسى رضى الله عنه ما نصه :

وسئل العلامة الشهاب الرملى الشافعى رحمه الله تعالى عما يقع من العامة من قولهم عند الشدائد. يا شيخ فلان ونحو ذلك. فأجاب بأن الاستعانة بالأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام والأولياء والعلماء والصالحين جائزة. قال الشيخ عبد الغنى: يقول مصنف هذه الرسالة -يشير إليه- يعنى جواز التوسل

والاستغاثة بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾[2].

قال الشيخ الرملى : وللرسل والأنبياء والأولياء إغاثة بعد موتهم، لأن معجزة الأنبياء وكرامة الأولياء لا تنقطع بعد موتهم . أما الأنبياء فإنهم أحياء فى قبورهم يصلون ويحجون كما وردت به الأخبار، فتكون الإغاثة منهم معجزة لهم، والشهداء أيضاً أحياء شوهدوا نهاراً جهاراً يقاتلون الكفار. وأما الأولياء فهى كرامة لهم، انتهى كلام الرملى.

وقد ذكر الشيخ عبد الغنى بعدها فتوى من العلامة الإمام الشيخ عبد الحى الشرنبلالى الحنفى من جملتها قوله رحمه الله تعالى : وأما التوسل بالأنبياء والأولياء فجائز، إذ لا يشك فى مسلم أنه يعتقد فى سيدى أحمد أو غيره من الأولياء أن له إيجاد شيء من قضاء مصلحة أو غيرها إلا بإرادة الله تعالى وقدرته[3]، والمسلم متى أمكن حمل كلامه على معنى صحيح سالم من التكفير وجب المصير إليه أ هـ كلام الشبراخيتى، ثم نقل الشيخ عبد الغنى رضى الله عنه فتوى الشيخ سليمان البرخيتى المالكى بذلك وأتبعها بفتوى الشمس الشويرى الشافعى التى قدمتها فى أواخر الباب الأول من هذا الكتاب ، وقال بعدها : وهذه صورة ما أجاب به الإمام الهمام الشيخ محمد الخليلى الشافعى.

وذكر فتواه بطولها إلى أن قال الخليلى رحمه الله : واعلم أن الاعتراض على القوم، يعنى الصوفية، مما يوجب الخذلان فيوقع فاعله فى واد من الخسران كما نص على ذلك العلامة ابن حجر من أئمتنا ، فمن اعترض عليهم يخشى عليه سوء الخاتمة كما وقع لكثير من الناس أنهم مقتوا بذلك ولم يفلحوا ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾[4].

قال الشيخ الخليلى وأما قوله ، يعنى المعترض إنه لا يجوز التوسل بالأنبياء

(2) سورة المائدة : الآية 35.

(3) الصحيح أن يقول لأن ذلك بيد الله أو بإرادة الله وقدرته لا أن يقول (إلا بإرادة الله) فالسؤال والدعاء يوجه إلى الله سبحانه وتعالى والإجابة منه . لأن العبارة عاليه توحى بأن قضاء المصلحة أو الحاجة قد تكون من الولى بإرادة الله ونرى أن هذا ليس هو مقصود الشيخ.

(4) سورة الأنعام: الآية 125 .

والأولياء ، فهذا كذب وافتراء وقد نص أئمتنا على أنه لا يجوز التوسل بـــأهل الخير والصلاح ، ولا يظن عامى من العوام فضلاً عن الخواص أن نحو ســـيدى أحمد البدوى يحدث شيئاً فى الكون ، وإنما يرون أن رتبتهم تقصر عن الســـؤال من الله تعالى ، فيتوسلون بمن ذكر تبركاً بهم كما لا يخفى .

قال رحمه الله: إذا علمت ذلك علمت أن التوسل بالأنبياء والأولياء جـــائز وارد عن السلف والخلف سواء كانوا أحياء أم أمواتاً؛ ولا ينكر ذلك إلا مـــن ابتلى بالحرمان أو سوء العقيدة، نعوذ بالله منه ومن سيرته فجميع ما قاله مـردود عليه ووجب أن لا يعول عليه. وقال العارف النابلسى قبـــل ذلـــك فى كتابـــه المذكور نقلاً عن فتوى الشيخ الإمام العلامة أبى العز أحمد بن العجمى الشـــافعى الوفائى الأزهرى؛ وقول : يا سيدى أحمد أو يا شيخ فلان ليس من الإشراك لأن القصد التوسل والاستعانة . قال الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾.[5]

في توضيح هذه المسألة:يقول جامعه الفقير يوسف النبهانى عفـــا الله عنـــه : اعلم أن جميع المسلمين الزائرين والمستغيثين بعباد الله الصالحين ولا سيما الأنبيـاء والمرسلين خصوصاً سيدهم الأعظم صلى الله عليه وسلم هم مع كمال تعظيمهم لأولئك السادات بالزيارات والاستغاثات يعلمون أنهم من جملة عبيد الله تعالى لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم من دون الله تعالى ضراً ولا نفعاً ولكنـــهم أحـــب عبيده تعالى إليه وأقربهم زلفى لديه.

وهو سبحانه قد اتخذهم ولا سيما المرسلين منهم وسائط بينه وبين خلقـــه. فى تبليغ دينه وشرائعه، فاتخذوهم خلقه المجيبـــون لدعوتهـــم المصدقـــون بنبوتهـــم وصفوتهم وسائط إليه فى غفران زلاتهم وقضاء حاجاتهم لعلمهم بـــأن المناســـبة بينهم وبينه تعالى أقوى بكثير من المناسبة بين غيرهم وبينه عز وجل وإن كـــانوا كلهم عبيده تعالى؛ فإذا علم ذلك يعلم يقيناً أن تعظيمهم وتوقيرهم والتوسل بهم إليه تعالى فضلاً عن كونه لا يخل بتوحيده سبحانه وتعالى هو من لباب توحيـــده، وخالص دينه، وأحسن أنواع عباداته عز وجل، فكيف يقـــال مـــع هـــذا إن

(5) سورة المائدة: الآية 35 .

تعظيمهم يخل بالتوحيد، هذا والله عكس الموضوع، ولا يقدم على القـــول بـــه مسلم موفق.

فالحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به كثيرا من خلقه ولو حصل من المخـــالفين أدنى تدقيق لعرفوا أنفسهم على الباطل بشذوذهم عن السواد الأعظم ، وهـــو جمهور أمته صلى الله عليه وسلم حتى إن العلم بهذه المســـألة : أى مشـــروعية السفر لزيارة النبى صلى الله عليه وسلم ، ومثله الاستعانة به صلـــى الله عليـــه وسلم من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة عند جميع العلماء[6] والعوام مـــن أهل الإسلام، حتى قال بعض أئمة المالكية كما نقله السبكى فى (شفاء الســـقام) وابن حجر فى (الجوهر المنظم) بكفر المانعين لذلك[7] وإن كان هذا القول غـــير معتمد، وليس فى شيء من الاستغاثة وشد الرحل ما يأباه العقل أو النقل.

وحديث منع شد الرحال هو وارد فى المساجد بـــالتصريح، ولا داعـــى إلى تعميمه فى غيرها، وعبارته لا تفيد ذلك من جهة العربية، وهو غير صحيح مـــن جهة الأحكام الشرعية، وتفصيل ذلك تقدم فى الباب الأول، وكل ما أتوا بـــه فى هذا الباب من المحاذير والأوهام تأباه هذه الشريعة الحنيفية السمحة ولا يقتضيـــه دين الإسلام ولا يخفى على أحد من المسلمين، بل وغير المسلمين عنده أدنى إلمام بمعرفة هذا الدين المبين وأحوال من اتبعه من المؤمنين أن جمهور الأمة المحمدية مـن الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والصوفية وغيرهم من الخواص والعوام من جميـــع مذاهب الإسلام ، متفقون بالقول والفعل على استحسان الاستغاثة والتوســـل والتشفع بالنبى صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى لقضـــاء الحوائـــج الدنيويـــة والأخروية، واستحباب شد الرحال ، والسفر لزيارته صلى الله عليه وسلم مـــن الأقطار البعيدة والقريبة حتى صار ذلك عندهم بمنزلة الأمور المعلومة من الديـــن بالضرورة بحيث لا يجهله ولا يتصور خلافه أحد، بل لا يتوهم خلافه ولا يتخيلـه كثير من طلبة العلم فضلا عن جمهور العامة الذين لا يخطر شيء من ذلك فى بال أحد منهم.

---

(6) الصحيح أن يقال جمهور العلماء وجميع العوام لأن بعض العلماء لا يقر ذلك وهم الذين ترد عليـــهم هذه الرسالة.

(7) يجب ألا يصل الخلاف فى هذا الشأن إلى تكفير المسلمين بعضهم بعضا لا الموافقين ولا المانعين .

بل ولا يجوزون أنه يوجد مخالف من المسلمين فى استحسان ذلك، وما زالت الأمة بحمد الله تعالى كذلك يتلقاه المتأخرون عن المتقدمين، ويعتقدون كما هو الواقع أن ذلك من أفضل الطاعات وأكمل القربات إلى أن شذ عنهم أقل من القليل من بعض العلماء أشهرهم فى ذلك ابن تيمية وتلميذاه المذكوران.[8]

وكل المخالفين لو جمعوا فى سالف الأعصار لا يجتمع منهم إلا شرذمة فى غاية القلة لو نسبناها إلى ذلك الجمهور الأعظم من علماء الأمة على اختلاف المذاهب والمشارب لوجدنا فى مقابلة كل واحد من المخالفين ألوف ألوف من أولئك العلماء الأعلام فضلا عمن سواهم من الخواص والعوام ، وهذا وحده كاف لظهور أن الحق مع السواد الأعظم الذي يجب اتباعه عند وقوع الخلاف كما ورد عن الشارع صلى الله عليه وسلم لامع تلك الشرذمة الشاذة .

وقد ورد فى الحديث عن النبى المختار [من شذ فى النار] وكل عاقل صحبه أدنى توفيق إذا أعمل فكره قليلا يدرك أن الحق الواضح مع أولئك الجماهير والخطأ الفاضح مع ذلك النزر القليل، مع أن ما قاله جماهير العلماء وعملوا به وشنعوا على مخالفه وعليه عمل الأمة من جواز الاستغاثة به والسفر لزيارته صلى الله عليه وسلم فيه تعظيمه وتوقيره صلى الله عليه وسلم الذي نحن مكلفون به شرعا من جانب الله تعالى تكليفا لا مندوحة عنه، بل لا يصح ولا يتم الإيمان إلا به كما ورد ذلك في الكتاب والسنة واستفاض بين الأمة.

وما زعمته تلك الشرذمة الشاذة فيه عدم الرعاية لجنابه الشريف وقدره المنيف صلى الله عليه وسلم، و لا ينفعهم ما يلقونه من الأوهام ، ويغلطون به أنفسهم ، ويلبسون به على العوم ما تأباه ذوو الأحلام ، وتجل عنه محن دين الإسلام، من أن ذلك شرك فى تعظيم الملك العلام سبحانه وتعالى ، فإن ذلك دليل على قصور الأفهام التى لبس عليها الشيطان وحيرها فى هذا الشأن، حتى جعلهم يستنبطون فى ذلك بحسب أوهامهم أحكاما تأباها هذه الشريعة السمحة ، التى ليلها مثل نهارها ، ولا يضل فيها إلا ضال ، ويفهمون من بعض آياتها وأحاديثها عكس مقصود الشارع ، ولا سيما فيما يتعلق بسيد الوجود

(8) يقصد ابن القيم ومحمد بن عبد الوهاب .

وصاحب المقام المحمود صلى الله عليه وسلم، ويلبسون بذلك على الخلق ، ويعتقدون خلاف الحقيقة والحق، ويخالفون هذه الأمة المحمدية التى لا تجتمع على ضلالة ، وقد ألهمها الله تعالى بفضله رشدها وهداها إلى معرفة درجات التعظيم الواجب لله تعالى ، وسادات عبيده الكرام الذين اصطفاهم من الأنام، ولا سيما حبيبه الأعظم صلى الله عليه وسلم.

ولا يشك عاقل بأن تعظيم خواص عبيد الله وأصفيائه من الأنبياء والأولياء فى حياتهم وبعد مماتهم هو فى الحقيقة تعظيم لله تعالى، ولا يفهم موفق أن فى ذلك شركا مع الربوبية لأنهم عبيده الطائعون وخدامه الصادقون، الذين قضوا أعمارهم فى خدمته كما يحب ويرضى سبحانه وتعالى، وكانوا الوسائط بينه وبين خلقه فى إرشادهم وهدايتهم وتبليغهم شرائعه وتعريفهم دينه وكيفية عبادته وما يجب له تعالى من أوصاف الكمال وما يستحيل عليه من أوصاف النقص، وبذلك امتازوا عن سائر عبيده عز وجل ، وصاروا أقربهم وأحبهم إليه ، فاستحقوا بذلك أن يعظمهم الناس لا لذاتهم بل لعلمهم أن تعظيمهم إياهم من أجل تعظيم الله لهم فهو تعظيم له سبحانه وتعالى ، وليس هذا من العلوم الدقيقة التى تختص بها العلماء الأعلام ولا تدركها العوام ، بل هو من الأمور التى تدرك بالبداهة.

وقد جبلت عليها طبائع الناس عالمهم وجاهلهم ، إذ استوى أدنى الناس عقلا وأكثرهم فضلا فى معرفة أن إكرام عبيد السلطان وأتباعه وتعظيمهم هو من أحسن وجوه التقرب إليه لقضاء حوائجهم عنده، وكلما كان ذلك العبد أو التابع أقرب له وأحب إليه كان إكرامه وتعظيمه والتوسل به إليه أقرب فى نجاح الحاجة وحصول المقصود ، كما أنه يغضبه تحقير عبيده وأتباعه فيترتب على ذلك سخطه كما ترتب على تعظيمهم وإكرامهم.. الخ وإكرامهم رضاه، وهكذا الأمر هنا فى تعظيم أنبياء الله تعالى وأصفيائه وخواص عبيده، فهو من أقوى أسباب رضاه تعالى كما أن تحقيرهم من أقوى أسباب غضبه عز وجل .

واعلم أنه لا عبرة فى المحاذير الموهومة التى ذكروها لأنها فضلا عن كونها لا مقبولة ولا معقولة هى إلى الآن فى كل هذه الأعصار لم يحصل منها شىء، فلم يترتب على زيارتهم، والاستغاثة بهم دعوى الألوهية فى أحد منهم من المستغيثين

والزائرين ، والحمد لله رب العالمين .

وأنت إذا نظرت إلى كل فرد من أفراد المسلمين عامتهم وخاصتهم لا تجد في نفس أحد منهم غير مجرد التقرب إلى الله تعالى لقضاء حاجاتهم الدنيوية والأخروية بالاستغاثات والزيارات لأولئك السادات مع علمهم بأنهم عبيد الله تعالى ليس لهم من الأمر شيء، فقلوب المسلمين وجوارحهم ولحمهم ودمهم مجبولة – والحمد لله – على توحيد الله تعالى واعتقاد أنه الفعال المطلق المستحق للتعظيم بالأصالة وحده لا شريك له ، وتعظيمهم لسواه من خواص عبيده إنما يكون بقدر منزلة ذلك العبد عند الله تعالى بحسب ما علموه، فهم يعظمون حبيبه الأعظم صلى الله عليه وسلم أكثر من سائر الخلق لعلمهم أنه أحب عبيده تعالى إليه وأقربهم لديه.

ثم يعظمون بعده الأنبياء المرسلين أكثر من غير المرسلين لأن درجاتهم في الفضل تلي درجته صلى الله عليه وسلم، ثم يعظمون بعدهم سائر الأنبياء أكثر من الأولياء لعلمهم بأنهم أفضل منهم عند الله تعالى ، ثم يعظمون أهل بيته وأصحابه صلى الله عليه وسلم بحسب ما علموه من درجاتهم عند الله ورسوله ، وكذلك سائر الأولياء يعظمونهم بحسب ما ثبت في نفوسهم من قربهم من الله تعالى .

أما آل النبي وأصحابه رضي الله عنهم ، فقد جعلت لهم هذه القرابة والصحبة مزية امتازوا بها عند الله تعالى ورسوله عن سائر الأولياء تقتضي تعظيمهم لمجرد القرابة والصحبة، وهم مع ذلك درجات بحسب ما عندهم من الفضل والتقوى ومحاسن الصفات.

وأما الأولياء وهم المؤمنون المتقون والعلماء العاملون والغزاة المجاهدون فهم إنما يمتازون عن غيرهم بعلمهم وتقواهم وما فضلهم الله به من الكرامات وخوارق العادات ، وما خدموا به هذه الشريعة المحمدية ونفعوا به الأمة الإسلامية من العلوم والمعارف والفتوحات والذب عن المسلمين والإسلام : بعضهم بحد القلم ، وبعضهم بحد الحسام.

فمتى ثبت عند المسلمين : إما بالمشاهدة أو التواتر أو نقل الثقات من المؤلفين وغيرهم أن فلانا كان من الأولياء العارفين أو من العلماء العاملين أو من المؤمنين

الصالحين أو من الشهداء والمجاهدين يعظمونه بالزيارة والتوسل بحسب ما ثبت فى نفوسهم من درجة قربه إلى الله تعالى وحسن طاعته لمولاه عز وجل ، ولا يعظمون أحدا منهم لذاته أصلا، فالتعظيم كله راجع لله تعالى فهو لا شك من جملة الطاعات له عز وجل التى يؤجرون عليها إن شاء الله تعالى ، ولو فرضنا أن بعض أولئك المزارين ليس كما ظنه بهم الزائرون من الولاية والصلاح ، فهم بذلك إنما والوا أولياء الله وأحبوهم فى الله وهم يعلمون يقينا أنه لا أحد من خلق الله يستحق معه تعالى ذرة من التعظيم لذاته.

بل ذلك كله راجع له سبحانه وتعالى بالأصالة، وهو من فضله الذي تكرم عليهم بالأوصاف الجميلة التى ميزهم بها عن سائر عبيده، فنالوا منهم لأجله ذلك التكريم والتعظيم وخلع عليهم حلل كرامته فى حياتهم وبعد مماتهم وفى دنياهم وآخرتهم وهو البر الكريم، فمن حاول من تلك الشرذمة الشاذة شرذمة ابن تيمية أن لا يعظم أحدا من خواص عبيد الله الصالحين زاعما أن ذلك يخل بتعظيم الله تعالى فقد خالف الحق وعكس الحقيقة وتعدى برأيه الفاسد على حقوق الله تعالى وأخل بذلك فى تعظيمه اللائق بأوصاف ربوبيته وسيادته المطلقة، وأراد أن يحجر عليه عز وجل اختياره المطلق فى تخصيص من شاء من الأصفياء عبيده بالأوصاف الجميلة التى تقربهم إليه وتحمل الناس على تعظيمهم لأجله والتوسل بهم لديه سبحانه وتعالى. وبعكس حب المسلمين لأولياء الله تعالى بغضتهم لأعدائه عز وجل ، فنراهم يبغضونهم أحياء وأمواتا وما ذاك إلا محبة فى الله تعالى ، وهم مكلفون شرعا بموالاة أوليائه ومعادة أعدائه سبحانه وتعالى، وكم من آيات قرآنية وأحاديث نبوية وردت فى ذلك دلت على كثرة اعتناء الشارع بالحب فى الله والبغض فى الله، كما وردت آيات وأحاديث كثيرة فى الثناء على أنبياء الله تعالى وعباده الصالحين، ولا سيما حبيبه الأعظم صلى الله عليه وسلم ، أليس ذلك من تعظيم الله تعالى لهم وحبه إياهم؛ كما أن ما ورد من الآيات والأحاديث فى ذم أعدائه تعالى هو تحقير من الله تعالى لهم . أليس من تمام طاعته تعالى أن نعظم ونحب أصفياءه الذين أثنى عليهم وعظمهم، ونحقر ونبغض أعداءه الذين ذمهم وحقرهم ؟ أليس هو تعالى الذي دلنا بالثناء على

أوليائه على رعايته لهم وعلو مقامهم عنده ومحبته إياهم.

فإذا عظمناهم وتقربنا وتشفعنا وتوسلنا بهم إليه لقضاء حوائجنا الدنيوية والأخروية مع اعتقادنا الجازم الذي لا يعتريه خلل ولا يشوبه خطأ ولا زلل أنهم عبيده،وليس لهم معه من الأمر شيء، وأنه تعالى يشفع من شاء منهم ويرد شفاعة من شاء ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾[9] ولا يجب عليه تعالى لأحد شيء، وإنما هو من فضله أثنى عليهم فى كتابه وأثنى عليهم نبيه صلى الله عليه وسلم فى أحاديثه ببيان أوصافهم الجميلة، وهى كلها ترجع إلى صدق عبوديتهم لله تعالى وحسن خدمتهم له عز وجل، فعظمناهم لذلك واتخذناهم وسائط لقضاء حوائجنا عنده لكونهم، وإن شاركونا فى أصل العبودية له تعالى، قد امتازوا عنا بما تفضل الله عليهم به من الرسالة والنبوة والولاية وكثرة العلم والعمل والمعرفة والطاعات وسائر الخدمات التى تليق به تعالى. أنكون بذلك قد أشركنا بعبادته تعالى، أو نكون قد أطعناه سبحانه وتعالى بتعظيم من عظم الله واحتقار أنفسنا عن أن نكون أهلاً لطلب حوائجنا منه تعالى بلا واسطة لكثرة ذنوبنا وتقصيرنا فى طاعة مولانا عز وجل، ولذلك اتخذنا أفضل عبيده وسائل إليه لنوال فضله، فهذا لا يشك عاقل بأنه من حسن الأدب مع الله تعالى الذي يترتب عليه رضاه، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾[10].

واعلم أن هذه الشرذمة الشاذة التى تمنع من ذلك هى توافق جمهور العلماء والمسلمين فى أن لأنبياء الله تعالى وأوليائه خصوصية عند الله تعالى امتازوا بها عن سائر الناس فى حياتهم ويوم القيامة، وأنه يجوز الاستغاثة والتوسل والاستشفاع بهم إلى الله تعالى فى هاتين الحالتين لورود الأحاديث الصحيحة بذلك، ويسلمون بحياة الأنبياء فى قبورهم لصحة الأحاديث الكثيرة بها.

ولكن يقولون إنها حياة برزخية دون حياة الدنيا والآخرة، ويسلمون أن لأرواح الأولياء بل لأرواح سائر المؤمنين وغيرهم اتصالاً بأجسامهم فى قبورهم

---

(9) سورة البقرة : الآية 255 .

(10) سورة الأعراف : الآية 43 .

وأنها تزورها فى بعض الأحيان وأنهم يعلمون بمن يزورهم، وأن الميت يتأذى مما يتأذى منه الحى، ولذلك حرم الجلوس على القبور والمشى عليها لورود الأحاديث الصحيحة بذلك، وأنه يستحب زيارة القبور ومخاطبة الأموات بما ورد فى الأحاديث الصحيحة من قول الزائر: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإذا كان الأمر كذلك فلم لا يجوز التوسل والاستعانة والاستشفاع بأصحاب الخصوصيات منهم الأنبياء والأولياء بعد مماتهم كما جاز قبل ذلك فى حياتهم وبعد ذلك يوم القيامة.

والله تعالى فى جميع المواطن الثلاثة هو الله تعالى وحده لا شريك له وهم خواص عبيده الذين جاز التوسل بهم إليه تعالى من قبل ومن بعد، فلم لا يجوز فى البين، وتعظيمهم لأجله هو فى الحقيقة راجع إليه تعالى، ولا وجه لذم من فعله والاعتراض عليه وأى محذور فى ذلك كما زعموه.

ونحن من أول الإسلام إلى الآن لم نسمع بأحد من المسلمين اعتقد الألوهية فى واحد من الأنبياء والصالحين بعد موتهم. بل الذين ضل بهم بعض الناس منهم واعتقدوا فيهم الألوهية كسيدنا عيسى عليه السلام من أنبياء الله وسيدنا علي رضى الله عنه من أوليائه تعالى. إنما ضلوا بهم فى حياتهم لما شاهدوه منهم من خوارق العادات واستمر بهم ذلك الضلال إلى ما بعد . فأصل ضلالهم لم يقع منهم من زيارتهم للقبور واستغاثتهم بهم، بل وقع فى حياتهم كما علمت.

والمخالفون لا يمنعون الاستغاثة بالأنبياء والأولياء والسفر لزيارتهم فى حياتهم، فظهر أن المحذور الذي ذكروه لا يعول عليه ولا يلتفت إليه، وأن زعمهم الفرق بين الحياة والممات ويوم القيامة هو فى غير محله، إذ هذا الفرق إنما هو بحسب ما عندهم. وأما الله تعالى الذي اختص خواص عبيده بما اختصهم به من الأوصاف الجميلة التى أجلها صدق عبوديتهم وحسن عبادتهم له تعالى، فلا فرق عنده بين هذه المواطن الثلاثة، قد استوى عنده عز وجل رضاه عنهم ومحبته إياهم فى حياتهم ومماتهم ويوم القيامة، مع أن صفاء أرواحهم الطاهرة بعد الممات لا ينكره إلا جاهل أو مكابر.

واعلم أن جميع المسلمين على علم يقينى بأن الله تعالى هو السيد المطلق

للخلائق أجمعين وكلهم عبيده، قد اشترك فى وصف العبودية له عز وجل اتقاهم وأشقاهم، ولكنهم فيها درجات ، فأشدهم عبودية له تعالى الأنبياء والملائكة لأن معرفتهم بعظمته وجلاله أشد من معرفة من هو دونهم، وهم أيضاً درجات، أعظمهم درجة وأعلاهم فى العبودية رتبة سيدنا محمد سيد عبيد الله وأحبهم إليه وأفضلهم من كل الوجوه لديه، وتلى رتبته صلى الله عليه وسلم فى العبودية رتب الأنبياء ورؤساء الملائكة ثم عوامهم وأوليائه الموحدين، ثم سائر المؤمنين بحسب درجاتهم فى التقوى ومعرفة الله تعالى؛ وأدنى الناس فى مراتب العبودية الكفار الذين أشركوا بالله تعالى فلم يخلصوا عبوديتهم له، بل زعموا أنهم عبيد غيره سبحانه وتعالى ، وإن كان لسان حالهم يكذبهم كعباد الأصنام وعباد المسيح عليه السلام .

إذا علمت ذلك تعلم أن قلة الشرف للخلق وزيادته بحسب قلة وصف العبودية فيهم وزيادته، فكلما كانت العبودية أقوى كان الشرف أعلى، ومن هنا يظهر جلياً أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم إنما ساد الخلق على الإطلاق بعد الملك الخلاق بعلو درجته وارتفاع منزلته وسمو مرتبته فى العبودية لله تعالى، فهو العبد الخالص الذي لم يشم رائحة الألوهية وكذلك سائر الأنبياء ووراءهم الأولياء.

إلا أنه صلى الله عليه وسلم أمكنهم فى ذلك ، وقد حماه الله تعالى من أن يدعى فيه الألوهية أحد من الناس كما ادعوها فى سيدنا عيسى عليه السلام وعلى رضى الله عنه، مع أنه صلى الله عليه وسلم قد ظهر له من المعجزات والفضائل وخوارق العادات ما لم يشاركه فيه أحد ، وهذه أمته صلى الله عليه وسلم مع شدة محبتها له أكثر من محبة سائر الأمم لأنبيائهم لم نسمع بأحد قط منهم أدعى فيه صلى الله عليه وسلم الألوهية من عهده إلى الآن . فتبين أن المحاذير التى تخيلها ابن تيمية وجماعته لا يلتفت إليها ولا يعول عليها على أنه لم يحصل أى شيء منها، وإنما هى مجرد خيالات وأوهام لا ينبنى عليها أحكام، والأحاديث التى استدلوا بها لذلك إنما حملوها على غير محاملها كما ذكره العلماء ونقلته عنهم فى مواضعه من هذا الكتاب .

(فائدة مهمة) قال العارف الكبير الشهير سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه فى (المنن الكبرى) : سمعت سيدى عليا الخواص رضى الله عنه يقـــول : إياكم أن تسألوا فى حوائجكم الأولياء الذين ماتوا فإن غالبهم لا تصرف لـــه فى القبر ، وأما غير الغالب: كالإمام الشافعى رضى الله عنه، وسيدى أحمد البـدوى رضى الله عنه وأضرابهم فربما جعل الله تبارك وتعالى لهم التصريف فى قبورهـــم بحسب صدق من توجه إليهم[11]. قال : أى الخواص رضى الله عنـــه ، وقـد استدارت أبواب جميع الأولياء رضى الله تعالى عنهم لتغلق وما بقى مفتوحـــاً إلا باب سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وزاده فضلاً وشرفاً لديه ، فمن كان لـه حاجه فليصل على النبى صلى الله عليه وسلم ألف مرة بتوجه تام، ثم يســـأله فى قضاء حاجته فإنها تقضى إن شاء الله تعالى .

(تتمة : أذكر فيها كلام بعض أئمة العلماء والأولياء فى زيارة قبور الصـــالحين والانتفاع بزيارتهم وصفاء أرواحهم بعد مماتهم) .

قال سيدى العلامة السيد أحمد دحلان رحمه الله تعالى : فى كتابـــه (تقريـــب الأصول لتسهيل الوصول) قد صرح كثير من العارفين أن الولى بعد وفاته تتعلـق روحه بمريديه فيحصل لهم ببركته أنوار وفيوضات . قال : وممن صرح بذلـــك قطب الإرشاد سيدى عبد الله بن علوى الحداد ، فإنه قال رضى الله عنه : الـولى يكون اعتناؤه بقرابته واللائذين به بعد موته أكثر من اعتنائه بهم فى حياته لأنـــه فى حياته كان مشغولاً بالتكليف وبعد موته طرح عنه الأعباء وتجرد، والحى فيـه خصوصية وبشرية ، وربما غلبت إحداهما وخصوصاً فى هذا الزمان فإنها تغلـــب البشرية ، والميت ما فيه إلا الخصوصية فقط.

وقال القطب الحداد أيضاً: إن الأخيار إذا ماتوا لم تفقد منـــهم إلا أعيـــانهم وصورهم، وأما حقائقهم فموجودة، فهم أحياء فى قبورهم، وإذا كان الولى حيـاً فى قبره فإنه لم يفقد شيئاً من علمه وعقله وقواه الروحانية، بل تزداد أرواحـــهم بعد الموت بصيرة وعلماً وحياة روحانية وتوجهاً إلى الله تعالى، فـــإذا توجـــهت أرواحهم إلى الله تعالى فى شيء قضاه سبحانه وتعالى وأجراه إكراماً لهم، وهـــذا

---

(11) ليس هناك دليل شرعى على ذلك .

معنى قول بعضهم: إن لهم التصرف ، فالتصرف الحقيقى الذي هو التأثير والخلق والإيجاد لله تعالى فى شيء قضاه سبحانه وتعالى وأجراه إكراماً لهم، وهذا معنى قول بعضهم: إن لهم التصرف، فالتصرف الحقيقى الذي هو التأثير والخلق والإيجاد لله تعالى وحده، فالواقع منهم من جملة الأسباب العادية التى لا تأثير لها وإنما يوجد الأمر عندها لا بها على حسب ما أجراه الله تعالى من العوائد أ . هـ.

ثم ذكر فى كتابه المذكور شيئاً من كلام سيدى أبى المواهب الشاذلى ، ومنه قوله: سمعت شيخنا أبا عثمان المغربى رضى الله عنه يقول : إذا زار الإنسان قبر الولى فإن ذلك الولى يعرفه، وإذا سلم عليه يرد عليه السلام وإذا ذكر الله على قبره ذكر معه لا سيما إن ذكر لا إله إلا الله فإنه يقوم ويجلس معه متربعاً ويذكر معه ، ثم قال الشيخ أبو المواهب رضى الله عنه : وحاشا قلوب العارفين أن تخبر بغير فهم ، ومعلوم أن الأولياء أحياء فى قبورهم إنما ينقلون من دار إلى دار ، فحرمتهم أمواتاً كحرمتهم أحياء، والأدب معهم بعد موتهم كالأدب معهم حال الحياة وفى حال الموت ، وإذا مات الولى صلى عليه جميع أرواح الأنبياء والأولياء .

قال : وعلى هذا الذي ذكره شيخنا قول صاحب الحقائق والدقائق حاشا الصوفى أن يموت. وكان الشيخ أبو المواهب رضى الله عنه أيضاً يقول : من الأولياء من ينفع مريده الصادق بعد مماته أكثر مما ينفعه حال حياته، ومن العباد من تولى الله تعالى تربيته بنفسه بغير واسطة ، ومنهم من تولاه بواسطة بعض أوليائه ولو ميتاً فى قبره، فيربى مريده وهو فى قبره ويسمع مريده صوته من القبر[12] ولله عباد يتولى تربيتهم النبى صلى الله عليه وسلم بنفسه[12] من غير واسطة لكثرة صلاتهم عليه صلى الله عليه وسلم .

قال الإمام فخر الدين الرازى فى المطالب فى الفصل الثالث عشر فى بيان كيفية الانتفاع بزيارة القبور والموتى: إن الإنسان إذا ذهب إلى قبر إنسان قوى النفس كامل الجوهر ووقف هناك ساعة وحصل تأثير فى نفسه حين حصل من الزائر تعلق بزيارة تلك التربة.

فلا يخفى أن لنفس ذلك الميت تعلقاً بتلك التربة أيضاً ، فحينئذ يحصل لنفس

---

(12) ليس هناك دليل شرعى من كتاب أو سنة على ذلك .

الزائر الحى ولنفس ذلك الإنسان الميت ملاقاة بسبب اجتماعهما علـــى تلــك التربة، فصارت هاتان النفسان شبيهتين بمرآتين صقيلتين متقابلتين بحيث ينعكــس الشعاع من كل واحدة منهما إلى الأخرى، فكل ما حصل فى نفس هذا الزائــر الحى من المعارف والبراهين والعلوم الكسبية والأخلاق الفاضلة من الخشــوع لله تعالى والرضا بقضاء الله تعالى ينعكس منه نور إلى روح ذلك الإنسان الميت.

وكل ما حصل فى ذلك الإنسان الميت من العلوم المشرقة والآثـــار القويــة الكاملة ينعكس من نور إلى روح هذا الحى الزائر، وبهذه الطريقة تصــير تلــك الزيارة سبباً لحصول تلك المنفعة الكبرى والبهجة العظمى لروح هذا الزائــر ، فهذا هو السبب والأصل فى مشروعية الزيارة، ولا يبعد أن يحصل منها أســرار أخرى أدق وأخفى مما ذكرنا، وتمام الحقائق ليس إلا عند الله تعالى، انتهى كــلام الرازى .

قال الشيخ أبو المواهب : قال بعض العارفين : وللأولياء عند زيارة الأوليــاء وقائع كثيرة تدل على اعتناء المزور بالزائر وتوجهه إليه بالكلية على قدر توجهه وقابليته ، انتهى ما نقلته من (تقريب الأصول) للسيد أحمد دحـــلان رحمــه الله تعالى .

الفصل الثاني

خلاصة الكلام فى أمراء البلد الحرام

تأليف السيد أحمد دحلان – مفتى الشافعية فى مكة المكرمة

قال الشيخ يوسف النبهانى فى نقل كلام الإمام العلامة ناصر السنة فى هذا الزمان سيدى السيد أحمد دحلان مفتى الشافعية فى مكة المشرفة فى كتابه (خلاصة الكلام : فى بيان أمراء البلد الحرام) وله كتاب مستقل فى الرد على الوهابية، ولكن كلامه فى الكتاب المذكور كاف واف شاف، وها أنا أنقله برمته وإن تكرر بعضه مع ما تقدم وهو جامع لكل ما يلزم ذكره فى هذا الشأن من إثبات الحق ودحض الأباطيل، ورد شبههم بأوضح بيان وأقوى دليل .

قال رحمه الله تعالى : ذكر الشبه التى تمسك بها الوهابية : ينبغى أولاً أن نذكر الشبهات التى تمسك بها ابن عبد الوهاب فى إضلال العباد ، ثم نذكر الرد عليه ببيان أن كل ما تمسك به زور وافتراء وتلبيس على عوام الموحدين ؛ فمن شبهاته التى تمسك بها زعمه أن الناس مشركون فى توسلهم بالنبى صلى الله عليه وسلم وبغيره من الأنبياء والأولياء والصالحين وفى زيارتهم قبره صلى الله عليه وسلم وندائهم له بقولهم : يا رسول الله نسألك الشفاعة.

وزعم أن ذلك كله إشراك، وحمل الآيات القرآنية التى نزلت فى المشركين على الخواص والعوام من المؤمنين كقوله تعالى ﴿فَلا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾[1] وقوله تعالى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾[3] وقوله تعالى ﴿وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[4] وقوله تعالى ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ

---

(1) سورة الجن : الآية 18 .

(2) سورة الأحقاف : الآية 5 .

(3) سورة الشعراء : الآية 213 .

(4) سورة يونس : الآية 106 .

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [5] وقوله تعالى ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[6]، وقوله تعالى ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً﴾ [7] وأمثال هذه الآيات كثير في القرآن كلها حملها على الموحدين. قال محمد بن عبد الوهاب: إن من استغاث أو توسل بالنبي صلى الله عليه وسلم أو بغيره من الأنبياء والأولياء والصالحين أو ناداه أو سأله الشفاعة فإنه يكون مثل هؤلاء المشركين ويكون داخلاً في عموم هذه الآيات، وجعل زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً مثل ذلك ، وقال في قوله تعالى حكاية عن المشركين في اعتذارهم عن عبادة الأصنام : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[8] .

إن المتوسلين مثل هؤلاء المشركين الذين يقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، فإن المشركين ما اعتقدوا في الأصنام أنها تخلق شيئاً، بل يعتقدون أن الخالق هو الله تعالى بدليل قوله تعالى ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [9] وقوله تعالى ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [10] فما حكم الله عليهم بالكفر والإشراك إلا لقولهم ﴿لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾[11] فهؤلاء مثلهم. هكذا احتج محمد عبد الوهاب ومن تبعه على المؤمنين ، وهي حجة باطلة، فإن المؤمنين ما اتخذوا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا الأولياء آلهة وجعلوهم شركاء لله، بل هم يعتقدون أنهم عبيد الله مخلوقون له ولا يعتقدون استحقاقهم العبادة ولا أنهم يخلقون شيئاً ولا أنهم يملكون نفعاً أو ضرا، وإنما قصدوا التبرك بهم لكونهم أحباء الله المقربين الذين اصطفاهم واجتباهم

---

(5) سورة الرعد : الآية 14 .

(6) سورة فاطر : الآية 14 .

(7) سورة الإسراء : الآية 56 .

(8) سورة الزمر : الآية 3 .

(9) سورة الزخرف : الآية 78 .

(10) سورة لقمان : الآية 25 .

(11) سورة الزمر : الآية 3 .

وببركتهم يرحم الله عباده.

ولذلك شواهد كثيرة من الكتاب والسنة سنذكر لك كثيراً منها، فاعتقاد المسلمين أن الخالق النافع الضار هو الله وحده ، ولا يعتقدون استحقاق العبادة إلا لله وحده ، ولا يعتقدون التأثير لأحد سواه ، وأما المشركون الذين نزلت فيهم الآيات السابق ذكرها ، فكانوا يتخذون الأصنام آلهة، والإله معناه المستحق للعبادة ، فهم يعتقدون استحقاق الأصنام للعبادة ، فاعتقادهم استحقاقها للعبادة هو الذى أوقعهم فى الشرك، فلما أقيمت عليهم الحجة بأنها لا تملك نفعاً ولا ضراً قالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فكيف يجوز لمحمد بن عبد الوهاب وأتباعه أن يجعلوا المؤمنين الموحدين مثل أولئك المشركين الذين يعتقدون ألوهية الأصنام .

إذا علمت هذا تعلم أن جميع الآيات المتقدم ذكرها وما ماثلها من الآيات خاص بالكفار المشركين ولا يدخل فيها أحد من المؤمنين، لأنهم لا يعتقدون ألوهية غير الله تعالى ولا يعتقدون استحقاق العبادة لغيره، وقد تقدم حديث البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما فى وصف الخوارج أنهم انطلقوا إلى آيات نزلت فى الكفار فحملوها على المؤمنين. فهذا الوصف صادق على ابن عبد الوهاب وأتباعه فيما صنعوه.

ولو كان شيء مما صنعه المؤمنون من التوسل إشراكا ما كان يصدر من النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسلف الأمة وخلفها، فإنهم جميعهم كانوا يتوسلون ، فقد كان من دعائه صلى الله عليه وسلم : "اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك" وهذا توسل صريح لا شك فيه ، وكان يعلم هذا الدعاء أصحابه رضى الله عنهم ويأمرهم بالإتيان به . فقد روى ابن ماجة بإسناد صحيح عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [من خرج من بيته إلى الصلاة فقال : اللهم أنى أسألك بحق السائلين عليك وأسألك بحق ممشاى هذا إليك، فإنى لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، فأسألك أن تعيذنى من النار وأن تغفر لى ذنوبى، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له

سبعون ألف ملك] وذكره الجلال السيوطى فى الجامع الكبير.

وذكره أيضاً كثير من الأئمة فى كتبهم عند ذكر الدعاء المسنون عند الخروج إلى الصلاة، بل قال بعضهم: ما من أحد من السلف إلا وكان يدعو بهذا الدعاء عند خروجه إلى الصلاة، فانظر قوله [أسألك بحق السائلين عليك] فإن فيه التوسل بكل عبد مؤمن. وروى الحديث المذكور أيضاً ابن السنى بإسناد صحيح عن بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنه ، ولفظه [كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج إلى الصلاة قال : بسم الله آمنت بالله وتوكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك وبحق مخرجى هذا، فإنى لم أخرج بطرا ولا أشرا ولا رياء ولا سمعة، خرجت ابتغاء مرضاتك واتقاء سخطك، أسالك أن تعيذنى من النار وأن تدخلنى الجنة]

ورواه الحافظ أبو نعيم فى عمل اليوم والليلة من حديث أبى سعيد بلفظ "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج إلى الصلاة قال : اللهم " إلى آخر ما تقدم فى رواية ابن السنى، ورواه البيهقى فى كتاب الدعوات من حديث أبى سعيد أيضاً، ومحل الاستدلال قوله: "بحق السائلين عليك" فهذا توسل صدر منه صلى الله عليه وسلم وأمر أصحابه أن يقولوه ، ولم يزل السلف من التابعين وأتباعهم ومن بعدهم يستعملون هذا الدعاء عند خروجهم إلى الصلاة ولم ينكر عليهم أحد فى الدعاء به .

ومما جاء عنه صلى الله عليه وسلم من التوسل قوله صلى الله عليه وسلم [اغفر لأمى فاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى] ، وهذا اللفظ قطعة من حديث طويل رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط وابن حبان والحاكم وصححوه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : [لما ماتت فاطمة بنت أسد رضى الله عنها وكانت ربت النبى صلى الله عليه وسلم، وهى أم على بن أبى طالب رضى الله عنه دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس عند رأسها وقال رحمك الله يا أمى بعد أمى، وذكر ثناءه عليها وتكفينها ببرده وأمره بحفر قبرها، قال فلما بلغوا اللحد حفره صلى الله عليه وسلم بيده وأخرج ترابه بيده ، فلما فرغ دخل صلى الله عليه وسلم فاضطجع فيه ثم قال :

الله الذى يحيى ويميت وهو حى لا يموت اغفر لأمى فاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى فإنك أرحم الراحمين] وروى ابن أبى شيبة عن جابر رضى الله عنه مثل ذلك ، وكذا روى مثله ابن عبد البر عن ابن عباس رضى الله عنهما، ورواه أبو نعيم فى الحلية عن أنس رضى الله عنه، ذكر ذلك كله الحافظ السيوطى فى الجامع الكبير.

ومن الأحاديث الصحيحة التى جاء التصريح فيها بالتوسل ما رواه الترمذى والنسائى والبيهقى والطبرانى بإسناد صحيح عن عثمان بن حنيف ، وهو صحابى مشهور رضى الله عنه [أن رجلاً ضريراً أتى النبى صلى الله عليه وسلم، فقال ادع الله أن يعافينى ، فقال إن شئت دعوت وإن شئت صبرت وهو خير، قال فادعه، فأمره أن يتوضأ فليحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء : اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة ، يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربى فى حاجتى لتقضى اللهم شفعه فىّ، فعاد وقد أبصر] .

وفى رواية قال ابن حنيف [فو الله ما تفرقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأن لم يكن به ضر قط] وخرج هذا الحديث أيضاً البخارى فى تاريخه وابن ماجة والحاكم فى المستدرك بإسناد صحيح، وذكره الجلال السيوطى فى الجامع الكبير والصغير، ففى هذا الحديث التوسل والنداء ، وإن عبد الوهاب يمنع كلاً منهما ويحكم بكفر من فعل ذلك، وليس لابن عبد الوهاب أن يقول إن هذا إنما كان فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم، لأن الدعاء استعملته أيضاً الصحابة والتابعون بعد وفاته صلى الله عليه وسلم لقضاء حوائجهم.

فقد روى الطبرانى والبيهقى : [أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان رضى الله عنه فى زمن خلافته فى حاجة فكان لا يلتفت إليه ولا ينظر فى حاجته، فشكا ذلك لعثمان بن حنيف، فقال له ائت الميضأة فتوضأ ثم ائت المسجد فصل، ثم قل : اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبى الرحمة، يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربك لتقضى حاجتى وتذكر حاجتك، فانطلق الرجل فصنع ذلك ثم أتى باب عثمان رضى الله عنه ، فجاءه البواب فأخذ بيده فأدخله على عثمان فأجلسه معه ، وقال اذكر حاجتك فذكر حاجته فقضاها، ثم قال له ما كان لك

من حاجه فاذكرها، ثم خرج من عنده فلقى ابن حنيف فقال لـــه : جـــزاك الله خيراً ما كان ينظر فى حاجتى حتى كلمته لى، فقال ابن حنيف والله مـــا كلمتـــه ولكنى شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاه ضرير فشكا إليه ذهـــاب بصره" على آخر الحديث المتقدم ، فهذا توسل ونداء بعد وفاته صلى الله عليـــه وسلم .

وروى البيهقى وابن أبى شيبة بإسناد صحيح [أن الناس أصـــابهم قحـــط فى خلافة عمر رضى الله عنه فجاء بلال بن الحارث رضى الله عنه على قبر النـــبى صلى الله عليه وسلم وقال يا رسول الله استسق لأمتك فإنهم هلكـــوا ، فأتـــاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام وأخبره أنهم يسقون] وليس الاســـتدلال بالرؤيا للنبى صلى الله عليه وسلم، فإن رؤياه وإن كانت حقاً لكن لا تثبت بهـــا الأحكام لإمكان اشتباه الكلام على الرائى لا لشك فى الرؤيا، وإنما الاســـتدلال بفعل بلال بن الحارث فى اليقظة، فإنه من أصحاب النبى صلى الله عليه وســـلم، فإتيانه لقبر النبى صلى الله عليه وسلم ونداؤه له وطلبه أن يستسقى لأمته دليـــل على أن ذلك جائز.

وهو من باب التوسل والتشفع والاستغاثة به صلى الله عليه وسلم، وذلـــك من أعظم القربات، وقد توسل به صلى الله عليه وسلم أبوه آدم قبـــل وجـــود سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حين أكل من الشجرة التى نهاه الله عنها. قـــال بعض المفسرين فى قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْـــهِ﴾[12] إن الكلمات هى توسله بالنبى صلى الله عليه وسلم .

وروى البيهقى بإسناد صحيح فى كتابه (دلائل النبوة) الذى قال فيه الحـــافظ الذهبى عليك به فإنه كله هدى ونور . عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قـــال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [لما اقترف آدم الخطيئة قال يا رب أســـألك بحق محمد إلا ما غفرت لى، فقال الله تعالى يا آدم كيف عرفت محمداً ولم أخلقـــه؟ قال : يارب إنه لما خلقتنى رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إلـــه إلا الله محمد رسول الله فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليـــك،

---

(12) سورة البقرة : الآية 37 .

فقال الله تعالى صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلى وإذ سألتنى بحقه فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك] ، ورواه ايضاً الحاكم وصححه الطبرانى، وزاد فيه [وهو آخر الأنبياء من ذريتك] .

وإلى هذا التوسل أشار الإمام مالك رحمه الله تعالى للخليفة الثانى من بنى العباس ، وهو المنصور جد الخلفاء العباسين . وذلك أنه لما حج المنصور المذكور وزار قبر النبى صلى الله عليه وسلم سأل الإمام مالكاً وهو بالمسجد النبوى ، وقال له يا أبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال مالك : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله تعالى ، بل استقبله واستشفع به فيشفعه الله فيك . قال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾(13) ذكره القاضى عياض فى الشفاء وساقه بإسناد صحيح، وذكره الإمام السبكى فى (شفاء السقام فى زيارة خير الأنام) والسيد السمهودى فى (خلاصة الوفا) والعلامة القسطلانى فى (المواهب اللدنية) ، والعلامة ابن حجر فى (تحفة الزوار ، والجوهر المنظم) وذكره كثير من أرباب المناسك فى آداب زيارة النبى صلى الله عليه وسلم . قال العلامة ابن حجر فى (الجوهر المنظم) رواية ذلك عن الإمام مالك جاءت بالسند الصحيح الذى لا مطعن فيه.

وقال العلامة الزرقانى فى (شرح المواهب) ورواها ابن فهد بإسناد جيد، ورواها القاضى عياض فى الشفاء بإسناد صحيح رجاله ثقات ليس فى إسنادها وضاع ولا كذاب. ومراده بذلك الرد على من لم يصدق رواية ذلك عن الإمام مالك ، ونسب له كراهية استقبال القبر، فنسبة الكراهية إلى الإمام مالك مردودة ، واستسقى عمر رضى الله عنه فى زمن خلافته بالعباس بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنه لما اشتد القحط عام الرمادة فسقوا.

وذلك مذكور فى صحيح البخارى من رواية أنس بن مالك رضى الله عنه

---

(13) سورة النساء : الآية 64 .

وذلك من التوسل ، بل فى المواهب اللدنية للعلامة القسطلانى أن عمر رضى الله عنه استسقى بالعباس رضى الله عنه. قال : يا أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى للعباس ما يرى الولد للوالد فاقتدوا به فى عمه العباس واتخذوه وسيلة إلى الله تعالى، ففيه التصريح بالتوسل .

وبهذا يبطل قول من منع التوسل مطلقا سواء كان بالأحياء أو بالأموات ، وقول من منع بغير النبى صلى الله عليه وسلم ، لأن فعل عمر رضى الله عنه حجة لقوله صلى الله عليه وسلم [إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه] رواه الإمام أحمد وغيره عن ابن عمر وغيره، وروى الطبرانى فى الكبير وابن عدى فى الكامل عن الفضل بن العباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال [عمر معى وأنا مع عمر والحق بعدى مع عمر حيث كان]، وهذا مثل ما صح فى حق على رضى الله عنه حيث قال صلى الله عليه وسلم فى حقه [وأدر الحق معه حيث دار] وهو حديث صحيح رواه كثير من أصحاب السنن، فكل من عمر وعلى رضى الله عنهما يكون الحق معه حيث كان ، وهذان الحديثان من جملة الأدلة التى استدل بها أهل السنة على صحة خلافة الخلفاء الأربعة.

لأن عليا رضى الله عنه كان مع الخلفاء الثلاثة قبله لم ينازعهم فى الخلافة، فلما جاءت الخلافة له ونازعه غيره قاتله. ومن الأدلة الدالة على أن توسل عمر رضى الله عنه بالعباس رضى الله عنه حجة على جواز التوسل قوله صلى الله عليه وسلم [لو كان بعدى نبى كان عمر] رواه الإمام أحمد وغيره عن عقبة بن عامر وغيره .

وروى الطبرانى فى الكبير عن أبى الدرداء رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال [اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر فإنهما حبل الله الممدود من تمسك بهما فقد تمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها]، وإنما استسقى عمر رضى الله عنه بالعباس ولم يستسق بالنبى صلى الله عليه وسلم ليبين للناس أن الاستسقاء بغير النبى صلى الله عليه وسلم جائز ومشروع لا حرج فيه، لأن الاستسقاء بالنبى صلى الله عليه وسلم كان معلوما عندهم، فلربما يتوهم بعض

الناس أنه لا يجوز الاستسقاء بالنبى صلى الله عليه وسلم.

فبين لهم عمر رضى الله عنه الجواز ، ولو استسقى بالنبى صلى الله عليه وسلم لأفهم أنه لا يجوز الاستسقاء بغيره صلى الله عليه وسلم ، ولا يصح أن يقال إنما استسقى بالعباس ولم يستسق بالنبى صلى الله عليه وسلم لأن العباس حى والنبى صلى الله عليه وسلم قد مات ، لأن الاستسقاء إنما يكون بالحى ، لأن هذا القول باطل مردود بأدلة كثيرة : منها توسل الصحابة به صلى الله عليه وسلم بعد وفاته كما تقدم فى القصة التى رواها عثمان بن حنيف ، وكما فى حديث بلال ابن الحارث المتقدم، وكما فى توسل آدم الذى رواه عمر رضى الله عنه كما تقدم ، فكيف يعتقد عدم صحته بعد وفاته، وقد روى التوسل به قبل وجوده مع أنه صلى الله عليه وسلم حى فى قبره .

فنخلص من هذا : أنه يصح التوسل به صلى الله عليه وسلم قبل وجوده وفى حياته وبعد وفاته، وأنه يصح التوسل أيضاً بغيره من الأخيار كما فعله عمر رضى الله عنه حين استسقى بالعباس رضى الله عنه، وذلك من أنواع التوسل كما تقدم ، وإنما خص عمر العباس رضى الله عنهما من سائر الصحابة لإظهار شرف أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولبيان أنه يجوز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل، فإن علياً رضى الله عنه كان موجوداً وهو أفضل من العباس رضى الله عنه .

قال بعض العارفين : وفى توسل عمر بالعباس رضى الله عنهما دون النبى صلى الله عليه وسلم نكتة أخرى أيضاً زيادة على ما تقدم، وهى شفقة عمر رضى الله عنه على ضعفاء المؤمنين وعوامهم، فإنه لو استسقى بالنبى صلى الله عليه وسلم لربما تتأخر الإجابة لأنها معلقة بإرادة الله ومشيئته، فإذا تأخرت الإجابة ربما يقع وسوسة واضطراب لمن كان ضعيف الإيمان بسبب تأخر الإجابة، بخلاف ما إذا كان التوسل بغير النبى صلى الله عليه وسلم فإنه إذا تأخرت الإجابة لا تحصل تلك الوسوسة والاضطراب .

والحاصل أن مذهب أهل السنة والجماعة صحة التوسل وجوازه بالنبى صلى الله عليه وسلم فى حياته وبعد وفاته، وكذا بغيره من الأنبياء والمرسلين والأولياء

والصالحين كما دلت عليه الأحاديث السابقة، لأنا معاشر أهل السنة لا نعتقد تأثيراً ولا نفعاً ولا ضراً للنبى صلى الله عليه وسلم باعتبار الخلق والإيجاد والتأثير ولا لغيره من الأحياء والأموات، فلا فرق فى التوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، وكذا بالأولياء والصالحين لا فرق بين كونهم أحياء أو أمواتاً لأنهم لا يخلقون شيئاً وليس لهم تأثير فى شيء ، وإنما يتبرك بهم لكونهم أحباء الله تعالى، والخلق والإيجاد والتأثير لله وحده لا شريك له .

وأما الذين يفرقون بين الأحياء والأموات فإنهم يعتقدون التأثير للأحياء دون الأموات ونحن نقول [الله خالق كل شيء - والله خلقكم وما تعملون] فهؤلاء المجوزون التوسل بالأحياء دون الأموات هم الذين دخل الشرك فى توحيدهم لكونهم اعتقدوا تأثير الأحياء دون الأموات، فهم الذين اعتقدوا تأثير غير الله تعالى، فكيف يدعون المحافظة على التوحيد وينسبون غيرهم إلى الإشراك "سبحانك هذا بهتان عظيم".

فالتوسل والتشفع والاستغاثة كلها بمعنى واحد ، وليس لها فى قلوب المؤمنين معنى إلا التبرك بذكر أحباء الله تعالى لما ثبت أن الله يرحم العباد بسببهم سواء كانوا أحياء أو أمواتاً، فالمؤثر والموجد حقيقة هو الله تعالى، وهؤلاء سبب عادى فى ذلك لا تأثير لهم، وذلك مثل السبب العادى فإنه لا تأثير له. وحياة الأنبياء فى قبورهم ثابتة بأدلة كثيرة استدل بها أهل السنة وكذا حياة الشهداء والأولياء، وليس هذا محل بسط الكلام عليها .

وشبهة هؤلاء المانعين للتوسل أنهم رأوا بعض العامة يتوسعون فى الكلام ويأتون بألفاظ توهم أنهم يعتقدون التأثير لغير الله تعالى ويطلبون من الصالحين أحياء وأمواتاً أشياء جرت العادة بأنها لا تُطلب إلا من الله تعالى، ويقولون للولى أفعل لى كذا وكذا ، وربما يعتقدون الولاية فى أشخاص لم يتصفوا بها، بل اتصفوا بالتخليط وعدم الاستقامة، وينسبون لهم كرامات وخوارق عادات وأحوالاً ومقامات ليسوا بأهل لها ولم يوجد فيهم شيء منها.

فإنما أراد هؤلاء المانعون للتوسل أن يمنعوا العامة من تلك التوسعات دفعاً

للإبهام وسداً للذريعة وإن كانوا يعلمون أن العامة لا تعتقد تأثيراً ولا نفعاً ولا ضراً لغير الله تعالى، ولا تقصد بالتوسل إلا التبرك ولو أسندوا للأولياء شيئاً لا يعتقدون فيهم تأثيراً. فنقول لهم : إذا كان الأمر كذلك وقصدتم سد الذريعة ، فما الحامل لكم على تكفير الأمة عالمهم وجاهلهم خاصهم وعامهم، وما الحامل لكم على منع التوسل مطلقاً؟ بل كان ينبغى لكم أن تمنعوا العامة من الألفاظ الموهمة وتأمروهم سلوك الأدب فى التوسل، مع أن تلك الألفاظ الموهمة يمكن حملها على الإسناد المجازى مجازاً عقلياً كما يحمل على ذلك قول القائل:

هذا الطعام أشبعنى وهذا الماء أروانى وهذا الدواء أو الطبيب نفعنى، فإن ذلك كله عند أهل السنة محمول على المجاز العقلى. فإن الطعام لا يشبع والمشبع هو الله تعالى، والطعام سبب عادى لا تأثير له وكذا ما بعده . فالمسلم الموحد متى صدر منه إسناد الشىء لغير من هو له يجب حمله على المجاز العقلى، وإسلامه وتوحيده قرينة على ذلك كما نص على ذلك علماء المعانى فى كتبهم وأجمعوا عليه.

وأما منع التوسل مطلقاً فلا وجه له مع ثبوته فى الأحاديث الصحيحة ومع صدوره من النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسلف الأمة وخلفها، فهؤلاء المنكرون التوسل المانعون منه : منهم من يجعله حراماً، ومنهم من يجعله كفراً وإشراكاً، وكل ذلك باطل لأنه يؤدى إلى اجتماع معظم الأمة على الحرام والإشراك، لأن من تتبع كلام الصحابة والعلماء من السلف والخلف يجد التوسل صادراً منهم، بل ومن كل مؤمن فى أوقات كثيرة، واجتماع أكثرهم على الحرام أو الإشراك لا يجوز لقوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح [لا تجتمع أمتى على ضلالة].

بل قال بعضهم إنه حديث متواتر، وقال تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[14] فكيف تجتمع كلها أو أكثرها على ضلالة وهى خير أمة أخرجت للناس، فاللائق بهؤلاء المنكرين إذا أرادوا سد الذريعة منع الألفاظ الموهمة كما زعموا أن يقولوا : ينبغى أن يكون التوسل بالأدب وبالألفاظ التى ليس فيها إيهام، كأن يقول المتوسل: اللهم إنى أسألك وأتوسل إليك بنبيك صلى الله عليه

(14) سورة آل عمران : الآية 101 .

وسلم وبالأنبياء قبله وبعبادك الصالحين أن تفعل بى كذا وكذا، لا أنهم يمنعون التوسل مطلقاً، ولا أن يتجاسروا على تكفير المسلمين الموحدين الذين لا يعتقدون التأثير إلا لله وحده لا شريك له .

ومما تمسك به هؤلاء المنكرون للتوسل قوله تعالى﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاء بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾ (15) فإن الله نهى المؤمنين فى هذه الآية أن يخاطبوا النبى صلى الله عليه وسلم بمثل ما يخاطب بعضهم بعضاً: كأن ينادوه باسمه، وقياسا على ذلك لا ينبغى أن يطلب من غير الله تعالى كالأنبياء والصالحين الأشياء التى جرت العادة بأنها لا تطلب إلا من الله تعالى لئلا تحصل المساواة بين الله تعالى وخلقه بحسب الظاهر. وإن كان الطلب من الله تعالى على سبيل التأثير والإيجاد ومن غيره على سبيل التسبب والكسب، لكنه ربما يوهم تأثير غير الله تعالى فمنع من ذلك الطلب لدفع هذا الإيهام . والجواب أن هذا لا يقتضى المنع من التوسل مطلقاً ولا يقتضى منع الطلب إذا صدر من موحد، فإنه يحمل على المجاز العقلى بقرينة صدوره من موحد، فما وجه كونه حراماً أو شركاً؟ فلو قالوا إنه خلاف الأدب وأجازوا التوسل وشرطوا فيه أن يكون بالأدب والاحتراز عن الألفاظ الموهمة لكان له وجه، فالمنع مطلقاً لا وجه له .

ومن الأدلة الدالة على صحة التوسل به صلى الله عليه وسلم بعد وفاته ما ذكره العلامة السيد السمهودى فى خلاصة الوفا حيث قال : روى الدارمى فى صحيحه عن أبى الجوزاء قال : قحط أهل المدينة قحطاً شديداً، فشكوا إلى عائشة رضى الله عنها، فقالت انظروا إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجعلوا منه كوة إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف، ففعلوا فمطروا حتى نبت العشب وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم، فسمى عام الفتق. قال العلامة المراغى : وفتح الكوة عند الجدب سنة أهل المدينة يفتحون كوة فى أسفل الحرجة وإن كان السقف حائلاً بين القبر الشريف والسماء .

قال السيد السمهودى : وسنتهم اليوم فتح الباب المواجه للوجه الشريف والاجتماع هناك، وليس القصد إلا التوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم

---

(15) سورة النور : الآية 63 .

والاستشفاع به إلى ربه لرفعة قدره عند الله تعالى.

وقال أيضاً العلامة السيد السمهودى فى خلاصة الوفا : إن التوسل والتشفع به صلى الله عليه وسلم وبجاهه وبركته من سنن المرسلين وسيرة السلف الصالحين، وذكر كثير من علماء المذاهب الأربعة فى كتب المناسك عند ذكرهم زيارة النبى صلى الله عليه وسلم أنه يسن للزائر أن يستقبل القبر الشريف ويتوسل إلى الله تعالى فى غفران ذنوبه وقضاء حاجاته ويستشفع به صلى الله عليه وسلم .

قالوا : ومن أحسن ما يقول ما جاء عن العتبى ، وهو مروى أيضاً عن سفيان بن عيينة وكل منهما من مشايخ الشافعى رضى الله عنه ، ثم بعد أن ذكر قصة العتبى المشهورة قال : وليس محل الاستدلال الرؤيا فإنها لا تثبت بها أحكام لاحتمال حصول الاشتباه على الرائى، وأما محل الاستدلال كون العلماء استحسنوا للزائر الإتيان بما قاله الأعرابى : قال العلامة ابن حجر فى (الجوهر المنظم) وروى بعض الحفاظ عن أبى سعيد السمعانى أنه روى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنهم بعد دفنه صلى الله عليه وسلم بثلاثة أيام جاءهم أعرابى فرمى بنفسه على القبر الشريف على ساكنه أفضل الصلاة والسلام، وحثى من ترابه على رأسه وقال يا رسول الله قلت فسمعنا قولك ووعيت عن الله ما وعينا عنك، وكان فيما أنزله عليك قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾[16] وقد ظلمت نفسى وجئتك تستغفر لى إلى ربى ، فنودى من القبر الشريف أن قد غفر لك. وجاء ذلك عن على أيضاً من طريق أخرى، ويؤيد ذلك ما صح عنه صلى الله عليه وسلم من قوله "حياتى خير لكم، تحدثون ويحدث لكم ، ووفاتى خير لكم تعرض على أعمالكم ، ما رأيت من خير حمدت الله ، وما رأيت من شر استغفرت لكم" .

ومما ذكره العلماء فى آداب الزيارة أنه يستحب أن يجدد الزائر التوبة فى ذلك الموقف الشريف ويسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلها توبة نصوحاً،

---

(16) سورة النساء : الآية 64 .

ويستشفع به صلى الله عليه وسلم إلى ربه عز وجل فى قبولها، ويكثر الاستغفار والتضرع بعد تلاوة قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً﴾(17) ويقولون نحن وفدك يا رسول الله وزوارك جئناك لقضاء حقك والتبرك والاستشفاع بك مما أثقل ظهورنا وأظلم قلوبنا، فليس لنا يا رسول الله شفيع غيرك نؤمله ولا رجاء غير بابك نصله، فاستغفر لنا واشفع لنا عند ربك واسأله أن يمن علينا بسائر طلباتنا ويحشرنا فى زمرة عباده الصالحين والعلماء العاملين .

وفى "الجوهر المنظم" أيضاً : أن أعرابياً وقف على القبر الشريف ، وقال : اللهم إن هذا حبيبك وأنا عبدك ، والشيطان عدوك ، فإن غفرت لى سر حبيبك وفاز عبدك وغضب عدوك، وإن لم تغفر لى غضب حبيبك ورضى عدوك وهلك عبدك، وأنت يا رب أكرم من أن تغضب حبيبك وترضى عدوك وتهلك عبدك: اللهم إن العرب إذا مات فيهم سيد أعتقوا على قبره، وإن هذا سيد العالمين فأعتقنى على قبره يا أرحم الراحمين .

فقال له بعض الحاضرين يا أخا العرب : إن الله قد غفر لك بحسن هذا السؤال .

وذكر علماء المناسك ايضاً أن استقبال قبره الشريف صلى الله عليه وسلم وقت الزيارة والدعاء أفضل من استقبال القبلة. قال العلامة المحقق الكمال بن الهمام إن استقبال القبر الشريف أفضل من استقبال القبلة. وأما ما نقل عن الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه أن استقبال القبلة أفضل فمردود بما رواه الإمام نفسه فى مسنده عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : من السنة استقبال القبر المكرم وجعل الظهر للقبلة، وسبقه إلى ذلك ابن جماعة، فنقل استحباب استقبال القبر الشريف عن الإمام أبى حنيفة أيضاً، ورد قول الكرمانى إنه يستقبل القبلة ، وقال ليس بشىء .

قال فى الجوهر المنظم : ويستدل لاستقبال القبر أيضاً بأنا متفقون على أنه صلى الله عليه وسلم حى فى قبره يعلم بزائره ، وهو صلى الله عليه وسلم لو كان حياً لم يسع الزائر إلا استقباله واستدبار القبلة، فكذا يكون الأمر حين

---

(17) سورة النساء : الآية 64 .

زيارته فى قبره الشريف صلى الله عليه وسلم. وإذا اتفقنا فى المدرس من العلماء بالمسجد الحرام المستقبل للقبلة أن الطلبة يستقبلونه ويستدبرون الكعبة، فما بالك به صلى الله عليه وسلم ، فهذا أولى بذلك قطعاً. وقد تقدم قول الإمام مالك رحمه الله للمنصور : ولم تصرف وجهك عنه ، وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم إلى الله تعالى ؟ بل استقبله واستشفع به .

قال العلامة الزرقانى فى شرح المواهب، إن كتب المالكية طافحة باستحباب الدعاء عند القبر مستقبلاً له مستدبراً للقبلة ؛ ثم نقل عن مذهب الإمام أبى حنيفة والشافعى رحمهما الله تعالى والجمهور مثل ذلك . وأما مذهب الإمام أحمد ففيه اختلاف بين علماء مذهبه، والراجح عند المحققين منهم أنه يستقبل القبر الشريف كبقية المذاهب، وكذا القول فى التوسل، فإن المرجح عند المحققين منهم جوازه، بل استحبابه لصحة الأحاديث الدالة على ذلك، فيكون المرجح عند الحنابلة موافقاً لما عليه أهل المذاهب الثلاثة.

وأما ما ذكره الآلوسى فى تفسيره، من أن بعضهم نقل عن الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه أنه منع التوسل فهو غير صحيح، إذ لم ينقله عن الإمام أحد من اهل مذهبه، بل كتبهم طافحة باستحباب التوسل ونقل المخالف غير معتبر ، فإياك أن تغتر بذلك . وقد بسط الإمام السبكى نصوص المذاهب الأربعة فى استحباب التوسل فى كتابه : المسمى (شفاء السقام فى زيارة خير الأنام) فراجعه إن شئت .

وفى المواهب اللدنية للإمام القسطلانى : وقف أعرابى على قبره الشريف صلى الله عليه وسلم وقال : اللهم إنك أمرت بعتق العبيد وهذا حبيبك وأنا عبدك فأعتقنى من النار على قبر حبيبك فهتف به هاتف : يا هذا تسأل العتق لك وحدك ؟ هلا سألت العتق لجميع الخلق: يعنى من المؤمنين ؛ اذهب قد أعتقتك ، ثم أنشد القسطلانى أحد البيتين المشهورين ، وشارحه الزرقانى فى البيت الآخر ، وهما :

عن الملوك إذا شابت عبيدهم	فى رقهم أعتقوهم عتق أحرار
وأنت يا سيدى أولى بذا كرما	قد شبت فى الرق فأعتقنى من النار

ثم قال فى المواهب : وعن الحسن البصرى قال : وقف حاتم الأصم على قبره صلى الله عليه وسلم، فقال : يا رب إنا زرنا قبر نبيك صلى الله عليه وسلم فلا تردنا خائبين ، فنودى : يا هذا ، ما أذنا لك فى زيارة قبر حبيبنا إلا وقد قبلناك فارجع أنت ومن معك من الزوار مغفورا لكم .

وقال ابن أبى فديك : سمعت بعض من أدركت من العلماء والصلحاء يقول : بلغنا أن من وقف عند قبر النبى صلى الله عليه وسلم قال هذه الآية (إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) وقال صلى الله عليك يا محمد حتى يقولها سبعين مرة ، ناداه ملك : صلى الله عليك يا فلان ، ولم تسقط له حاجة .

قال الشيخ زين الدين المراغى وغيره : الأولى أن يقول : صلى الله عليك يا رسول الله بدل قوله : يا محمد للنهى عن ندائه باسمه حياً وميتاً، صلى الله عليه وسلم ، وابن أبى فديك من أتباع التابعين ، وكان من الأئمة الثقات المشهورين وهو من المروى عنهم فى الصحيحين وغيرهما من كتب السنن. قال الزرقانى فى شرح المواهب : اسمه محمد بن إسماعيل بن مسلم الديلمى. مات سنة مائتين على الصحيح ، وهذا الذى نقله فى المواهب عن ابن أبى فديك رواه عنه البيهقى.

وفى شرح المواهب للزرقانى أن الداعى إذا قال : اللهم إنى استشفع إليك بنبيك، يا نبى الرحمة اشفع لى عند ربك، استجيب له .

فقد اتضح لك من هذه النصوص المروية عن سلف الأمة وخلفها أن التوسل به صلى الله عليه وسلم وطلب الشفاعة منه وزيارته ثابتة عنهم ، وأنها من أعظم القربات ، وأن التوسل به واقع قبل خلقه وبعد خلقه فى حياته وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، ويكون أيضاً بعد البعث فى عرصات القيامة ، وأحاديث التوسل به يوم القيامة فى الصحيحين وغيرهما فلا حاجه إلى الإطالة بذكرها. فبطل بما ذكرناه من النصوص جميع ما ابتدعه محمد بن عبد الوهاب وما افتراه ولبس به على المؤمنين . قال فى المواهب : ويرحم الله ابن جابر حيث قال :

به قد أجاب الله آدم إذ دعا	ونجى فى بطن السفينة نوح
وما ضرت النار الخليل لنوره	ومن أجله نال الفداء ذبيح

ثم قال فى المواهب : فالتوسل به صلى الله عليه وسلم فى حياته وبعد وفاته أكثر من أن يحصى أو يدرك باستقصاء . قال : وفى كتاب (مصباح الظلام فى المستغيثين بخير الأنام) للشيخ أبى عبد الله بن النعمان طرف من ذلك ، ثم ذكر فى المواهب كثيرا من البركات التى حصلت له ببركة توسله بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وروى البيهقى عن أنس رضى الله عنه "أن أعرابيا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم يستسقى به ، وأنشد أبياتا فى آخرها:

وليس لنا إلا إليك فرارنا ... وأين فرار الخلق إلا إلى الرسل

فلم ينكر عليه صلى الله عليه وسلم هذا البيت، بل قال أنس لما أنشده الأعرابى الأبيات قام يجر رداءه حتى رقى المنبر فخطب ودعا لهم ، فلم يزل يدعو حتى أمطرت السماء وهو على المنبر" ، وفى صحيح البخارى "أنه لما جاء الأعرابى وشكا للنبى صلى الله عليه وسلم القحط، فدعا الله فانجابت السحاب بالمطر قال صلى الله عليه وسلم لو كان أبو طالب حيا لقرت عيناه، من ينشدنا قوله ؟ فقال على رضى الله عنه يا رسول الله كأنك أردت قوله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فتهلل وجه النبى صلى الله عليه وسلم ولم ينكر إنشاد البيت ولا قوله "يستسقى الغمام بوجهه" ولو كان فى ذلك إشراك لأنكره ولم يطلب إنشاده،وكان سبب إنشاء البيت من أبى طالب من جملة قصيدة مدح بها النبى صلى الله عليه وسلم أن قريشا أصابهم قحط فاستسقى بهم أبو طالب وتوسل بالنبى صلى الله عليه وسلم فاغدودق عليهم السحاب بالمطر، وكان ذلك قبل بعثة النبى صلى الله عليه وسلم فأنشأ أبو طالب تلك القصيدة، وصح عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام : يا عيسى آمن بمحمد ومر من أدركه من أمتك أن يؤمنوا به. فلولا محمد ما خلقت الجنة والنار، ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن. قال فى الجوهر المنظم : فإذا كان له صلى الله عليه وسلم هذا الفضل والخصوصية أفلا يتوسل به ؟ وذكر القسطلانى فى شرحه

على البخارى عن كعب الأحبار أن بنى إسرائيل كانوا إذا قحطوا استسقوا بأهل بيت نبيهم. فعلم بذلك أن التوسل مشروع حق فى الأمم السابقة.

وقال السيد السمهودى فى خلاصة الوفا : إن العادة جرت أن من توسل عند شخص بمن له قدر عنده يكرمه لأجله ويقضى حاجته، وقد يتوجه بمن له جاه إلى من هو أعلى منه ، وإذا جاز التوسل بالأعمال الصالحة كما فى صحيح البخارى فى حديث الثلاثة الذين أووا إلى غار فأطبق عليهم فتوسل كل واحد منهم إلى الله تعالى بأرجى عمل له فانفرجت الصخور التى سدت الغار عليهم، فالتوسل به صلى الله عليه وسلم أحق وأولى لما فيه من النبوة والفضائل سواء كان ذلك فى حياته أو بعد وفاته، فالمؤمن إذا توسل به إنما يريد نبوته التى جمعت الكمالات.

وهؤلاء المانعون للتوسل يقولون : يجوز التوسل بالأعمال الصالحة مع كونها أعراضا، فالذوات الفاضلة أولى، فإن عمر رضى الله عنه توسل بالعباس رضى الله عنه ، وأيضا لو سلمنا لهم ذلك فنقول لهم إذا جاز التوسل بالأعمال الصالحة فما المانع من جوازها بالنبى صلى الله عليه وسلم باعتبار ما قام به من النبوة والرسالة والكمالات التى فاقت كل كمال وعظمت على كل عمل صالح فى الحال والمآل مع ما ثبت من الأحاديث الدالة على ذلك وعلى الإذن فيه ، ومثله سائر الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، وكذا الأولياء وعباد الله الصالحون لما فيهم من الطهارة القدسية ومحبة رب البرية وحيازة أعلى مراتب الطاعة واليقين والمعرفة لله رب العالمين ، وذلك كله سبب كونهم من عباد الله المقربين فيقضى سبحانه وتعالى بالتوسل بهم حوائج المؤمنين. وينبغى أن يكون ذلك التوسل مع الأدب الكامل واجتناب الألفاظ الموهمة تأثير غير الله تعالى .

ومن أدلة جواز التوسل : قصة سواد بن قارب رضى الله عنه التى رواها الطبرانى فى الكبير، وفيها أن سواد بن قارب أنشد رسول الله صلى الله عليه وسلم قصيدته التى فيها :

فاشــهد أن الله لا رب غـــيره	وأنك مأمون على كـــل غـائب
وأنك أدنى المرســـلين وســيلة	على الله يا ابن الأكرمين الأطـايب
فمرنا بما يأتيك يا خير مرســـل	وإن كان فيما فيه شيب الذوائـب
وكن لى شفيعا يوم لا ذو شـفاعة	بمغن فتيلا عن سواد بـــن قـــارب

فلم ينكر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله أدنى المرسلين وسـيلة ولا قوله وكن لى شفيعا. وكذا من أدلة التوسل مرثية صفية رضى الله عنـــها عمـــة النبى صلى الله عليه وسلم، فإنها رثته بعد وفاته صلى الله عليه وســـلم بأبيـــات قالت فيها :

ألا يا رسول الله أنت رجاؤنـــا	وكنت بنا بـــرا ولم تـــك جافيـــا

ففيها النداء مع قولها : أنت رجاؤنا ، وسمع تلك المرثية الصحابة رضـــى الله عنهم ولم ينكر عليها أحد قولها : يا رسول الله أنت رجاؤنا .

قال العلامة ابن حجر فى كتابه المسمى (بالخيرات الحسان فى مناقب الإمـــام أبى حنيفة النعمان) فى الفصل الخامس والعشرين: إن الإمام الشافعى أيام هـــو ببغداد كان يتوسل بالإمام أبى حنيفة رضى الله عنه يجـــيء إلى ضريحـــه يـــزوره فيسلم عليه ثم يتوسل إلى الله تعالى به فى قضاء حاجاته . وقد ثبت توسل الإمـــام أحمد بالشافعى رضى الله عنهما حتى تعجب ابنه عبد الله ابن الإمام أحمـــد مـــن ذلك ، فقال له الإمام أحمد إن الشافعى كالشمس للناس وكالعافية للبدن.

ولما بلغ الإمام الشافعى أن أهل المغرب يتوسلون إلى الله تعالى بالإمام مالك لم ينكر عليهم ، وقال الإمام أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : من كانت لـــه إلى الله تعالى حاجة وأراد قضاءها فليتوسل إلى الله تعالى بالإمام الغـــزالى ، وذكـــر العلامة ابن حجر فى كتابه المسمى : (بالصواعق المحرقة لأهل الضلال والزندقـة) أن الإمام الشافعى رضى الله عنه توسل بأهل البيت النبوى حيث قال :

آل النــــبى ذريعــــــى	وهـــم إليـــــه وســـيلتى
أرجـــو بهـــم أعطـــى غـــدا	بيـــد اليمـــين صحيفـــتى

وذكر العلامة السيد طاهر بن محمد هاشم باعلوى فى كتابه : المسمى (مجمع الأحباب) فى ترجمة الإمام أبى عيسى الترمذى صاحب السنن، أنه رأى فى المنام رب العزة فسأله عما يحفظ عليه الإيمان ويتوفاه عليه ؟ قال فقال لى قل بعد صلاة ركعتى الفجر قبل صلاة فرض الصبح: إلهى بحرمة الحسن وأخيه وجده وبنيه وأمه وأبيه نجنى من الغم الذى أنا فيه يا حى يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام أسألك أن تحيى قلبى بنور معرفتك يا الله يا الله يا الله يا أرحم الراحمين.

فكان الإمام الترمذى يقول ذلك دائما بعد صلاة الصبح ويأمر أصحابه به ويحثهم على المواظبة عليه، فلو كان التوسل ممنوعا لما فعله هذا الإمام ولا أمر بفعله والمواظبة عليه، وهو إمام حجة يقتدى به ، بل هذا الأمر أعنى التوسل لم ينكره قط أحد من السلف والخلف حتى جاء هؤلاء المنكرون . وفى الأذكار للنووى "أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر أن يقول العبد بعد ركعتى الفجر ثلاثا : اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ومحمد صلى الله عليه وسلم أجرنى من النار" .

قال فى شرح الأذكار خص هؤلاء بالذكر للتوسل بهم فى قبول الدعاء، وإلا فهو سبحانه تعالى رب جميع المخلوقات، فافهم ذلك أنه من التوسل المشروع . وفى شرح حزب البحر للإمام زروق بعد ذكر كثير من الأخيار : اللهم إنا نتوسل إليك بهم فإنهم أحبوك وما أحبوك حتى أحببتهم فبحبك إياهم وصلوا إلى حبك ونحن لم نصل إلى حبهم فيك فتمم لنا ذلك مع العافية الكاملة الشاملة حتى نلقاك يا أرحم الراحمين . ولبعض العارفين دعاء مشتمل على قوله : اللهم رب الكعبة وبانيها وفاطمة وأبيها وبعلها وبنيها نور بصرى وبصيرتى وسرى وسريرتى، وقد جرب هذا الدعاء لتنوير البصر.

وأن من ذكره عند الاكتحال نور الله بصره، وذلك من الأسباب العادية، وهى لا تأثير لها، والمؤثر هو الله وحده لا شريك له. فكما أن الله تعالى جعل الطعام والشراب سببين للشبع والرى لا تاثير لهما، والمؤثر هو الله وحده تعالى، وكما جعل الطاعة سبباً للسعادة ونيل الدرجات جعل أيضاً التوسل بالأخيار الذين عظمهم الله وأمر بتعظيمهم سبباً لقضاء الحاجات، فليس فى ذلك كفر ولا

إشراك . ومن تتبع أذكار السلف والخلف وأدعيتهم وأورادهم وجدها كلها مشتملة على التوسل ولم ينكر ذلك أحد عليهم حتى جاء هؤلاء المنكرون.

ولو تتبعنا ما وقع من أكابر الأمة من التوسل لامتلأت بذلك الصحف وفيما ذكر كفاية. وإنما أطلت فى ذلك ليتضح الأمر للمتشكك فيه غاية الاتضاح ، لأن كثيراً من أتباع محمد بن عبد الوهاب يلقون إلى كثير من الناس شبهات يستميلونهم بها إلى اعتقادهم الباطل. فعسى أن يقف على هذه النصوص من أراد الله حفظه من قبول شبهاتهم فلا يلتفت إليها ويقيم عليهم الحجة فى إبطالها.

قال فى الجوهر المنظم : ولا فرق فى التوسل بين أن يكون بلفظ التوسل أو التشفع أو الاستعانة أو التوجه ، لان التوجه من الجاه ، وهو علو المنزلة، وقد يتوسل بذى الجاه إلى من هو أعلى منه جاها، والاستغاثة طلب الغوث، والمستغيث يطلب من المستغاث به أن يحصل له الغوث من غيره وإن كان أعلى منه. فالتوجه والاستغاثة به صلى الله عليه وسلم وبغيره ليس لهما معنى فى قلوب المسلمين غير ذلك ولا يُقصد بهما أحد منهم سواه.

فمن لم ينشرح صدره لذلك فليبك على نفسه. نسأل الله العافية. والمستغاث به فى الحقيقة هو الله تعالى، وأما النبى صلى الله عليه وسلم فهو واسطة بينه وبين المستغيث، فهو سبحانه وتعالى مستغاث به حقيقة، والغوث منه خلقاً وإيجاداً، والنبى صلى الله عليه وسلم مستغاث به مجازاً والغوث منه تسبباً وكسباً، فهو على حد قوله تعالى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[18] أى وما رميت خلقاً وإيجاداً إذ رميت تسبباً وكسباً ولكن الله رمى خلقاً وإيجاداً ، وكذا قوله تعالى ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾[19] وقوله صلى الله عليه وسلم [ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم] وكثيراً ما تجيء السنة لبيان الحقيقة ويجيء القرآن الكريم بإضافة الفعل إلى مكتسبه، ويسند إليه مجازاً كقوله صلى الله عليه وسلم "لن يدخل أحد الجنة بعمله" مع قوله تعالى (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) فالآية بيان للسبب العادى الذى لا تأثير له، والحديث بيان للسبب الحقيقى وهو

---

(18) سورة الأنفال : الآية 17 .

(19) سورة الأنفال : الآية 17 .

فضل الله تعالى .

وبالجملة فإطلاق لفظ الاستغاثة لمن يحصل منه غوث باعتبار الكسب أمر معلوم لا شك فيه لغة ولا شرعا ، فإذا قلت أغثنى يا الله تريد الإسناد الحقيقى باعتبار الخلق والإيجاد، وإذا قلت أغثنى يا رسول الله تريد الإسناد المجازى باعتبار الكسب والتوسط والتسبب بالشفاعة . ولو تتبعت كلام العلماء والأئمة لوجدت شيئا كثيرا من ذلك ، ومنه ما مر فى صحيح البخارى فى مبحث الحشر ووقوف الناس للحساب يوم القيامة "بينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم موسى ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم".

فتأمل تعبيره صلى الله عليه وسلم بقوله : استغاثوا بآدم، فإن الإسناد مجازى إذ المستغاث به حقيقة هو الله تعالى، وصح عنه صلى الله عليه وسلم لمن أراد عونا أن يقول " يا عباد الله أعينونى " وفى رواية "أغيثونى" وجاء فى قصة قارون لما خسف به أنه استغاث بموسى عليه السلام فلم يغثه وصار يقول يا أرض خذيه فعاتبه الله حيث لم يغثه وقال له استغاث بك فلم تغثه ولو استغاث بى لأغثته، فإسناد الإغاثة إلى الله تعالى إسناد حقيقى، وعلى موسى عليه السلام مجازى.

وقد يكون معنى التوسل به صلى الله عليه وسلم طلب الدعاء منه، إذ هو حى صلى الله عليه وسلم يعلم سؤال من يسأله ، وقد تقدم حديث بلال بن الحارث رضى الله عنه المذكور فيه أنه جاء إلى قبر النبى صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله استسق لأمتك ، أى ادع الله لهم، فعلم أنه صلى الله عليه وسلم يطلب منه الدعاء بحصول الحاجات كما كان يطلب منه فى حياته لعلمه بسؤال من يسأله مع قدرته على التسبب فى حصول ما سئل فيه بسؤاله ودعائه وشفاعته إلى ربه عز وجل ، وأنه صلى الله عليه وسلم يتوسل به فى كل خير قبل بروزه لهذا العالم وبعده فى حياته وبعد وفاته.

وكذا فى عرصات القيامة فيشفع على ربه . وكل هذا مما تواترت به الأخبار وقام به الإجماع قبل ظهور المانعين منه ، فهو صلى الله عليه وسلم له الجاه الوسيع والقدر المنيع عند سيده ومولاه المنعم عليه بما حباه وأولاه.

وأما تخيل بعض المحرومين أن منع التوسل والزيارة من المحافظة على التوحيد

وأن فعل ذلك مما يؤدى إلى الشرك فهو تخيل فاسد باطل ، فالتوسل والزيارة إذا فعل كل منهما مع المحافظة على آداب الشريعة الغراء لا يؤدى إلى محذور البتة، والقائل بمنع ذلك سداً للذريعة متقول على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم، وكأن هؤلاء المانعين للتوسل والزيارة يعتقدون أنه لا يجوز تعظيم النبى صلى الله عليه وسلم. فحيثما صدر من أحد تعظيم له صلى الله عليه وسلم حكموا على فاعله بالكفر والإشراك.

وليس الأمر كما يقولون، فإن الله تعالى عظم النبى صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم بأعلى أنواع التعظيم، فيجب علينا أن نعظم من عظمه الله تعالى وأمر بتعظيمه، نعم يجب علينا أن لا نصفه بشيء من صفات الربوبية، ورحم الله الشيخ الأبوصيرى حيث قال :

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم   واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

فليس فى تعظيمه صلى الله عليه وسلم بغير صفات الربوبية شيء من الكفر والإشراك بل ذلك من أعظم الطاعات والقربات ، وهكذا كل من عظمهم الله تعالى كالأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وكالملائكة والصديقين والشهداء الصالحين. قال الله تعالى ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾[20] وقال تعالى ﴿مَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾[21] ومن ذلك الكعبة المعظمة والحجر الأسود ومقام إبراهيم عليه السلام فإنها أحجار وأمرنا الله تعالى بتعظيمها بالطواف بالبيت ومس الركن اليمانى، وتقبيل الحجر الأسود ، وبالصلاة خلف المقام ، وبالوقوف للدعاء عند المستجار وباب الكعبة والملتزم ، ونحن فى ذلك كله لم نعبد إلا الله تعالى ولم نعتقد تأثيراً لغيره ولا نفعاً ولا ضراً، فلا يثبت شيء من ذلك لأحد سوى الله تعالى .

والحاصل أن هنا أمرين : أحدهما : وجوب تعظيم النبى صلى الله عليه وسلم ورفع رتبته عن سائر الخلق ، والثانى : إفراد الربوبية واعتقاد أن الرب تبارك

---

(20) سورة الحج : الآية 32 .

(21) سورة الحج : الآية 30 .

وتعالى منفرد بذاته وصفاته وأفعاله عن جميع خلقه، فمن اعتقد فى مخلوق مشاركة البارى سبحانه وتعالى فى شيء من ذلك فقد أشرك كالمشركين الذين كانوا يعتقدون الألوهية للأصنام واستحقاقها العبادة، ومن قصر بالرسول صلى الله عليه وسلم عن شيء من مرتبته فقد عصى أو كفر .

وأما من بالغ فى تعظيمه بأنواع التعظيم ولم يصفه بشيء من صفات البارى عز وجل فقد أصاب الحق وحافظ على جانب الربوبية والرسالة جميعاً، وذلك هو القول الذى لا إفراط فيه ولا تفريط، وإذا وجد فى كلام المؤمنين إسناد شيء لغير الله تعالى يجب حمله على المجاز العقلى ولا سبيل إلى تكفيرهم، إذ المجاز العقلى مستعمل فى الكتاب والسنة، فمن ذلك قوله تعالى ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً﴾[22] فإسناد الزيادة إلى الآيات مجاز عقلى لأنها سبب فى الزيادة ، والذى يزيد حقيقة هو الله تعالى وحده ، وقوله تعالى ﴿يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً﴾ [23] فإسناد الجعل إلى اليوم مجاز عقلى، لأن اليوم محل لجعلهم شيباً، فالجعل المذكور واقع فى اليوم ، والجاعل حقيقة هو الله تعالى وقوله تعالى ﴿وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾.[24]

فإسناد الضلال إلى الأصنام مجاز عقلى أنها سبب فى حصول الإضلال ، والهادى والمضل هو الله تعالى وحده ، وقوله تعالى حكاية عن فرعون ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً﴾ [25] فإسناد البناء إلى هامان مجاز عقلى لأنه سبب فهو آمر يأمر ولا يبنى بنفسه، والبانى إنما هو الفعلة.

وأما الأحاديث ففيها شيء كثير يعرفه من وقف عليها وكان ممن يعرف الفرق بين الإسناد الحقيقى والمجازى فلا حاجه إلى الإطالة بنقلها، وقال العلماء : إن صدور ذلك الإسناد من موحد كاف فى جعله إسناداً مجازياً لأن الاعتقاد الصحيح هو اعتقاد أن الخالق للعباد وأفعالهم هو الله وحده، فهو الخالق للعباد

---

(22) سورة الآنفال : الآية 2 .
(23) سورة المزمل : الآية 17 .
(24) سورة نوح : الآية 23 .
(25) سورة غافر : الآية 36 .

وأفعالهم لا تأثير لأحد سواه لا لحى ولا لميت وهذا الاعتقاد هو التوحيد المحض ، بخلاف من اعتقد غير هذا فإنه يقع فى الإشراك، وأما الفرق بين الحى والميت مع اعتقاد أن الحى يخلق أفعال نفسه فهو اعتقاد المعتزلة.

فلو كان هؤلاء، الذين يريدون المحافظة على التوحيد بزعمهم، وأن مرادهم منع الألفاظ الموهمة وسد الذريعة، يقتصرون على منع العامة عن الألفاظ الموهمة تأثير غير الله تعالى تأدباً، ومع هذا فإذا صدرت منهم تحمل على المجاز العقلي، ويجيزون لهم التوسل مع المحافظة على الأدب لكان لكلامهم وجه. وأما المنع منه بالكلية فهو مصادم للأحاديث الصحيحة ولفعل السلف والخلف.

فعليك باتباع الجمهور والسواد الأعظم. قال الله تعالى ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾(26) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم [من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه]. وقد ذكر العلامة ابن الجوزى فى كتابه المسمى : (تلبيس أبليس) أحاديث كثيرة فى التحذير من مفارقه السواد الأعظم : منها حديث ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه خطب فى الجابية فقال [من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد] وفى حديث عرفجة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : [يد الله على الجماعة والشيطان مع من يخالف الجماعة] وحديث أسامة بن شريك قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول [يد الله على الجماعة، فإذا شذ الشاذ منهم اختطفته الشياطين كما يختطف الذئب الشاة من الغنم].

وحديث معاذ بن جبل رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: [إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة الشاذة القاصية والنائية فإياكم والشعاب وعليكم بالجماعة العامة والمسجد] وحديث أبى ذر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال [اثنان خير من واحد ، وثلاثة خير من اثنين ، وأربعة خير من الثلاثة فعليكم بالجماعة فإن الله تعالى لن يجمع أمتى إلا على هدى].

---

(26) سورة النساء : الآية 115 .

فهؤلاء المنكرون للتوسل والزيارة فارقوا الجماعة والسواد الأعظم وعمدوا إلى آيات كثيرة من آيات القرآن التى نزلت فى المشركين ، حملوها على المؤمنين الذين تقع منهم الزيارة والتوسل ، وتوصلوا بذلك إلى تكفير أكثر الأمة من العلماء والصلحاء والعباد والزهاد وعوام الخلق.

وقالوا : إنهم مثل أولئك المشركين الذين قالوا ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾(27) وقد علمت أن المشركين اعتقدوا ألوهية غير الله تعالى واستحقاقه العبادة. وأما المؤمنون فلم يعتقد أحد منهم هذا الاعتقاد فكيف يجعلونهم مثل أولئك المشركين، سبحانك هذا بهتان عظيم.

وشبهة هؤلاء الخوارج فى المنع من طلب الشفاعة منه صلى الله عليه وسلم أنهم يقولون إن الله تعالى قال فى كتابه العزيز :

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (28) وقال تعالى ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾(29) فالطالب للشفاعة من أين يعلم حصول الإذن للنبى صلى الله عليه وسلم فى أنه يشفع له حتى يطلب الشفاعة منه ، ومن أين يعلم أنه ممن ارتضى حتى يطلب الشفاعة منهم. واحتجاجهم هذا مردود بالأحاديث الصحيحة الصريحة فى حصول الإذن له صلى الله عليه وسلم فى أنه يشفع لمن قال بعد الأذان والإقامة: اللهم رب هذه الدعوة التامة إلى آخر الدعاء المشهور ولمن صلى على النبى صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة، ولمن زار قبره صلى الله عليه وسلم.

بل جاءت أحاديث كثيرة صريحة فى شفاعته صلى الله عليه وسلم لعصاة أمته كقوله صلى الله عليه وسلم [شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى] فكل من مات مؤمناً فإنه يدخل فى شفاعته صلى الله عليه وسلم، فهى ثابتة لجميع المؤمنين ومأذون له صلى الله عليه وسلم فيها، فالطالب للشفاعة كأنه يتوسل إلى الله تعالى بالنبى صلى الله عليه وسلم على الله تعالى أن يحفظ عليه الإيمان حتى يتوفاه

(27) سورة الزمر: الآية 3 .

(28) سورة البقرة : الآية 255 .

(29) سورة الأنبياء : الآية 48 .

الله عليه، فيشفع فيه نبيه صلى الله عليه وسلم، فلا حاجة إلى التطويل ببسط الدلائل فى ذلك مع وضوح الأمر إلا لمن عميت بصيرته.

وأما شبهتهم فى المنع من النداء ، فقالوا : إن النداء والخطاب للجمادات والغائبين والأموات من الشرك الأكبر الذى يباح به الدم والمال، ولا مستند لهم فى ذلك، بل الأحاديث الصحيحة الصريحة فى بطلان قولهم هذا، وزعموا أن النداء للأموات والغائبين والجمادات يسمى دعاء وأن الدعاء عبادة، بل الدعاء مخ العبادة، أو حملوا كثيرا من الآيات القرآنية التى نزلت فى المشركين على الموحدين، وقد تقدم ذكر كثير من الآيات، وهذا كله منهم تلبيس فى الدين وتضليل لأكثر الموحدين، فإنه وإن كان النداء قد يسمى دعاء كما فى قوله تعالى ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾[30] لكن ليس كل نداء عبادة ، ولو كان كل نداء عبادة لشمل ذلك نداء الأحياء والأموات، فيكون كل نداء ممنوعاً مطلقاً، وليس الأمر كذلك، وإنما النداء الذى يكون عبادة هو نداء من يعتقدون ألوهيته واستحقاقه العبادة فيرغبون إليه ويخضعون بين يديه.

فالذى يوقع فى الإشراك هو اعتقاد ألوهية غير الله تعالى واعتقاد التأثير لغير الله تعالى. وأما مجرد النداء لمن لا يعتقدون ألوهيته ولا تأثيره فإنه ليس عبادة، ولو كان لميت أو غائب أو جماد، وذلك كله وارد فى كثير من الأحاديث الصحيحة والآثار الصريحة، فقولهم إن نداء الميت والجماد والغائب دعاء وكل دعاء عبادة غير صحيح على إطلاقه وعمومه. ولو كان كل نداء عبادة لامتنع نداء الحى والميت فإنهما مستويان فى أن كلا منهما لا تأثير له فى شيء، ولا يعتقد أحد من المسلمين ألوهية غير الله تعالى ولا تأثير لأحد سواه، فالدعاء الذى هو مخ العبادة هو الرغبة للإله والخضوع بين يديه.

وسأذكر لك كثيراً من الأحاديث والآثار التى جاء فيها النداء والخطاب للأموات والغائبين والجمادات وإن تقدم كثير من ذلك فلا بأس بإعادته، فمنها حديث الضرير الذى رواه عثمان بن حنيف رضى الله عنه، فإن فيه [يا محمد إنى

---

(30) سورة النور : الآية 63 .

أتوجه بك إلى ربك] وتقدم أن الصحابة رضى الله عنهم استعملوا ذلك بعد وفاته صلى الله عليه وسلم. وحديث بلال بن الحارث رضى الله عنه فإن فيه [إنه جاء إلى قبر النبى صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله استسق لأمتك] ففيه النداء له بعد وفاته والخطاب بالطلب منه أن يستسقى لأمته.

والأحاديث الواردة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى زيارة القبور فى كثير منها النداء والخطاب للأموات كقوله [السلام عليكم يا أهل القبور ، السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون] ففيها نداء وخطاب، وهى أحاديث كثيرة لا حاجة إلى الإطالة بذكرها، وتقدم أن السلف والخلف من أهل المذاهب الأربعة استحبوا للزائر أن يقول تجاه القبر الشريف : [يا رسول الله إنى جئتك مستغفراً من ذنبى مستشفعاً بك إلى ربى]، وصح عن بلال بن الحارث رضى الله عنه أنه ذبح شاة عام القحط المسمى عام الرمادة فوجدها هزيلة فصار يقول : وامحمداه وامحمداه ، وصح أيضاً أن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم لما قاتلوا مسيلمة الكذاب كان شعارهم : وامحمداه وامحمداه ، وفى الشفاء للقاضى عياض : أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما خدرت رجله مرة، فقيل له : اذكر أحب الناس إليك ، فقال وامحمداه، فانطلقت رجله. وجاء الخطاب وصورة النداء فى التشهد الذى يأتى به المسلم فى كل صلاة وعلمه النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه، فإن فيه : السلام عليك أيها النبى، وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا نزل أرضاً قال : [يا أرض ربى وربك الله] ففيه الخطاب والنداء للجماد ، وذكر الفقهاء فى آداب السفر : إن المسافر إذا انفلتت دابته بأرض ليس بها أنيس، فليقل : يا عباد الله احبسوا ، وإذا أضل شيئاً أو أراد عوناً فليقل : يا عباد الله أعينونى أو أغيثونى فإن بها عباداً لا تراهم.

واستدل الفقهاء على ذلك بما رواه ابن السنى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فلينادى يا عباد الله احبسوا فإن لله عباداً يجيبونه] ففيه نداء وطلب نفع: أى التسبب فى ذلك من عباد الله الذين لم يشاهدهم ؛ وفى حديث آخر

رواه الطبراني أنه صلى الله عليه وسلم قال [إذا أضل أحدكم شيئاً أو أراد عوناً، وهو بأرض ليس فيها أنيس فليقل : يا عباد الله أعينوني، وفي رواية أغيثوني فإن لله عباداً لا ترونهم].

قال العلامة ابن حجر في حاشية (إيضاح المناسك) وهو مجرب كما قاله الراوي، وروى أبو داود وغيره عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر فأقبل الليل قال [يا أرض ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك وشر ما خلق فيك وشر ما يدب عليك، أعوذ بالله من أسد وأسود ومن الحية والعقرب ومن شر ساكن البلد ووالد وما ولد].

وذكر الفقهاء في آداب السفر أنه يسن للمسافر الإتيان بهذا الدعاء عند إقبال الليل وفيه النداء والخطاب للجماد؛ وروى الترمذي عن ابن عمر رضى الله عنهما والدارمي عن طلحة بن عبيد الله رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى الهلال قال [ربي وربك الله] ففيه خطاب للجماد.

وصح أنه "لما توفى صلى الله عليه وسلم أقبل أبو بكر رضى الله عنه حين بلغه الخبر، فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكشف عن وجهه؛ ثم أكب عليه فقبله ثم بكى وقال : بأبي أنت وأمي طبت حياً وميتاً اذكرنا يا محمد عند ربك ولنكن من بالك" .

وفي رواية للإمام أحمد [فقبل جبهته، ثم قال وانبياه، ثم قبله ثلاثاً وقال واصفياه ثم قبله ثلاثاً وقال واخليلاه" ففي ذلك نداء خطاب له صلى الله عليه وسلم بعد وفاته. ولما تحقق عمر رضى الله عنه من وفاته صلى الله عليه وسلم بقول أبي بكر رضى الله عنه، قال وهو يبكي "بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد كان لك جذع تخطب الناس عليه، فلما كثروا واتخذت منبراً لتسمعهم حنّ الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن فأمتك أولى بالحنين عليك حين فارقتهم، بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عند ربك أن جعل طاعتك طاعته، فقال (من يطع الرسول فقد أطاع الله) بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك في أولهم، فقال

(وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح) الآية بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن يكونوا أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون يقولون : (ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد اتبعك فى قصر عمرك من لم يتبع نوحا فى كبر سنه وطول عمره].

فانظر إلى هذه الألفاظ التى صدرت من عمر رضى الله عنه. وقد تعدد فيها النداء له صلى الله عليه وسلم بعد وفاته، وقد رواها كثير من أئمة الحديث، وذكرها القاضى عياض فى الشفاء والغزالى فى الإحياء والقسطلانى فى المواهب اللدنية، وابن الحاج فى المدخل فيبطل بها وبغيرها قول المانعين للنداء القائلين إن كل نداء دعاء وكل دعاء عبادة.

وروى البخارى عن أنس رضى الله عنه أن فاطمة رضى الله عنها بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم : [يا أبتاه أجاب ربا دعاه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعله] وفى رواية [إلينا جبريل نعاه] والنعى هو الإخبار بالموت، وقد يكون الإخبار للعالم بموته تأسفاً على فقده، فكل من الروايتين صحيح فى المعنى، ففى هذا الحديث أيضاً نداؤه صلى الله عليه وسلم بعد وفاته، وفى المواهب : ورثته عمته صفية رضى الله عنها بمراث كثيرة، قالت فى مطلع قصيدة منها :

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا وكنت بنا براً ولم تك جافيا

ففى البيت نداؤه بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، ولم ينكره عليها أحد من الصحابة رضى الله عنهم مع حضورهم وسماعهم له، ومما جاء من النداء للميت التلقين به بعد دفنه وقد ذكره كثير من الفقهاء واستندوا فى ذلك إلى حديث الطبرانى عن أبى أمامة رضى الله عنه، واعتضد بشواهد. وصورته أن يقول للميت عند قبره بعد دفنه "يا عبد الله ابن أمة الله اذكر العهد الذى خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن الجنة حق وأن النار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور، قل رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم

نبيا، وبالكعبة قبلة وبالمسلمين إخوانا، ربى الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم".

ففى التلقين النداء والخطاب للميت، وحديث نداء النبى صلى الله عليه وسلم كفار قريش المقتولين ببدر بعد إلقائهم فى القليب مشهور، رواه البخارى وأصحاب السنن، وذكروا أن النبى صلى الله عليه وسلم جعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم ويقول [أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟].

وأما ما جاء من الآثار عن الأئمة الأحبار والعلماء الأخيار والأولياء الكبار مما يدل على جواز ذلك النداء والخطاب فشيء كثير تنقضى دون نقله الأعمار، ومضى على ذلك القرون والأعصار وما وقع منهم إنكار، فكيف يجوز الإقدام على تكفير المسلمين بشيء قام على ثبوته البراهين، وفى الحديث الصحيح [من قال لأخيه المسلم يا كافر فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه] قال العلماء ترك قتل ألف كافر أولى من إراقة دم امرئ مسلم. فيجب الاحتياط فى ذلك فلا يحكم بالكفر على أحد من أهل القبلة إلا بواضح قاطع للإسلام.

وممن رد على محمد عبد الوهاب أحد أشياخه ، وهو الشيخ محمد بن سليمان الكردى صاحب حواشى شرح مختصر بافضل، ومن جملة ما قاله فى الرسالة التى رد بها عليه: يا ابن عبد الوهاب سلام على من اتبع الهدى فإنى أنصحك لله تعالى أن تكف لسانك عن المسلمين ، فإن سمعت من شخص أنه يعتقد تأثير ذلك المستغاث به من دون الله تعالى فعرفه الصواب وأبن له الأدلة على أنه لا تأثير لغير الله، فإن أبى فكفره حينئذ بخصوصه ولا سبيل لك إلى تكفير السواد الأعظم من المسلمين، وأنت شاذ عن السواد الأعظم، فنسبة الكفر إلى من شذ عن السواد الأعظم أقرب لأنه اتبع غير سبيل المؤمنين. قال تعالى ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾[31] "وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية" أ هـ.

والحاصل أن الذين اعتنوا بالرد عليه خلائق لا يحصون من مشارق الأرض ومغاربها من أرباب المذاهب الأربعة فى كتب مبسوطة ومختصرة، وبعضهم التزم

(31) سورة النساء : الآية 115 .

الرد عليه بنصوص مذهب الإمام أحمد، ليبين له أنه كاذب ملبس فى انتسابه لمذهب الإمام أحمد رضى الله عنه.

وأما زيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم فقد فعلها الصحابة، ومن بعدهم من سلف الأمة وخلفها وانعقد الإجماع على استحبابها وجاء فى فضلها والترغيب فيها أحاديث كثيرة: منها ما رواه البيهقى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول [من زار قبرى كنت له شفيعاً وشهيدا] وهذه شفاعة خاصة للزائر غير شفاعته صلى الله عليه وسلم للعصاة، وروى الدارقطنى وابن السكن وغيرهما عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما [من زار قبرى وجبت له شفاعتى]. وفى رواية "من جاءنى زائراً لا تعمله حاجة غير زيارتى كان حقاً على أن أكون له شفيعاً يوم القيامة". وفى رواية لابن منده [من زارنى فى مسجدى بعد وفاتى كان كمن زارنى فى حياتى]. وفى رواية لابن عدى [من حج البيت ولم يزرنى فقد جفانى].

والمراد من الجفاء غلظ الطبع والبعد والإعراض عن المحبوب، والمراد أنه فعل فعل الجافى، لا أنه جفا جفاء حقيقياً، لأن ذلك أذى ولا يجوز أذاه صلى الله عليه وسلم. وفى رواية للدار قطنى [من زارنى متعمداً كان فى جوارى يوم القيامة، ومن مات فى أحد الحرمين بعثه الله من الآمنين يوم القيامة]. زاد فى رواية [ومن سكن المدينة وصبر على بلائها كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة]، وفى رواية رواها ابن جريج عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [من زارنى فى مماتى كان كمن زارنى فى حياتى، ومن زارنى حتى ينتهى إلى قبرى كنت له يوم القيامة شهيدا، أو قال شفيعا].

والأحاديث الواردة فى ذلك كثيرة لا حاجة لنا إلى الإطالة بذكرها مع إجماع السلف والخلف على استحبابها حتى ظهر المنكرون لها المانعون منها. وفى هذا القدر كفاية ومقنع، لمن كان بمرأى من التوفيق ومسمع.

وبمجموع ما ذكرناه يبطل جميع ما ابتدعه محمد بن عبد الوهاب ولبس به على المؤمنين واستباح هو ومن تبعه دماءهم وأموالهم، أ هـ كلام السيد أحمد دحلان رحمه الله تعالى .

الفصل الثالث
عبارات علماء المذاهب

فى الرد على ابن تيمية ، والكلام على بعض كتبه ومخالفته أهل السنة فى بعض المسائل المهمة ، ومنها اعتقاد الجهة فى جانب الله تعالى وتقدس.

فممن عاصره الإمام صدر الدين بن الوكيل المعروف بابن المرحل الشـــافعى وقد ناظره، ومنهم الإمام أبو حيان وكان صديقاً له ، فلما أطلع علـــى بدعـــه رفضه رفضاً باتاً وحذر الناس منه.

ومنهم الإمام عز الدين بن جماعة رد عليه وشنع عليه كثيراً، ولم أطلع علـــى كتب هؤلاء الثلاثة وإنما ذكرهم ابن حجر وغيره.

ومنهم الإمام كمال الدين الزملكانى الشافعى المتوفى سنة 727 هـــ. قال ابـــن الوردى فى تاريخه كان غزير العلم كثير الفنون مسدد الفتاوى دقيـــق الذهـــن وذكر له فى كشف الظنون (كتاب الدرة المضية فى الرد على ابن تيمية).

وقد ناظره فى مسائله التى شذ بها عن المذاهب الأربعة ومن أشنعها مســـألة منعه شد الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين ولا سيما سيد المرسلين والاســـتغاثة به صلى الله عليه وسلم وبهم إلى رب العالمين، ولم أطلع على كتابه هذا ، وإنمـــا اطلعت على قصيدة بليغة فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم تعرض فيها للـــرد على هذه الفرقة المفتونة فرقة ابن تيمية بقوله :

يا صاحب الجاه عنـــد الله خالقـــه	مـــا رد جـــاهك إلا كـــل أفـــاك
أنت الوجيه على رغم العدا أبـــدا	أنـــت الشـــفيع لفتـــاك ونســـاك
يا فرقة الزيـــغ لا لقيـــت صالحـــة	ولا شفى الله يوماً قلـــب مرضـــاك
لا حظيت بجـــاه المصطفـــى أبـــدا	ومـــن أعـــانك فى الدنيـــا ووالاك

ومنهم الإمام الكبير الشهير تقى الدين السبكى الشافعى . قال رحمه الله تعالى فى كتابه (شفاء السقام فى زيارة خير الأنام عليه الصلاة والسلام) :

اعلم أنه يجوز ويحسن التوسل والاستغاثة والتشفع بالنبى صلـــى الله عليــه وسلم إلى ربه سبحانه وتعالى، وجواز ذلك وحسنه من الأمور المعلومة لكــل ذى دين المعروفة من فعل الأنبياء والمرسلين وسير السلف الصالحين والعلماء والعوام من المسلمين، ولم ينكر أحد ذلك من أهل الإيمان ولا سمع به فى زمن من الأزمان حتى جاء ابن تيمية، فتكلم فى ذلك بكلام يلبس فيه على الضعفـــاء الأغمـــار، وابتدع ما لم يسبق إليه فى سائر الأعصار. وحســـبك أن إنكـــار ابـــن تيميـــة للاستغاثة والتوسل قول لم يقله عالم قبله وصار به بين أهل الإسلام مثله. وقـــد وقفت له على كلام طويل فى ذلك رأيت من الرأى القويم أن أميـــل عنـــه إلى الصراط المستقيم ولا أتبعه بالنقض والإبطال، فإن دأب العلمـــاء القـــاصدين لإيضاح الدين وإرشاد المسلمين تقريب المعنى إلى أفهامهم وتحقيق مراده وبيـــان حكمه. ورأيت كلام هذا الشخص بالضد من ذلك فالوجه الإضـــراب عنـــه، انتهى. وكتابه هذا (شفاء السقام) هو الذى قال فيـــه الإمـــام القســـطلانى فى المواهب اللدنية فى مبحث زيارة النبى صلى الله عليه وسلم ما نصه : وللشـــيخ تقى الدين بن تيمية هنا كلام شنيع عجيب يتضمن منع شد الرحـــال للزيـــارة النبوية المحمدية، وأنه ليس من القرب بل بضد ذلك، ورد عليه الشـــيخ تقـــى الدين السبكى فى (شفاء السقام) فشفى صدور المؤمنين أ هـ .

وقد قال فى خطبته وضمنت هذا الكتاب الرد على من زعم ــ يعـــنى ابـــن تيمية ـــ أن أحاديث الزيارة كلها موضوعة وأن الســـفر إليـــها بدعـــة غـــير مشروعة، وهذه المقالة أظهر فساداً من أن يرد عليها العلماء، ولكنى جعلت هذا الكتاب مستقلاً فى الزيارة وما يتعلق بها مشتملاً من ذلك على جملة يعز جمعـــها على طالبها اهـــ. وقال بعد ذلك فى كتابه المذكور : وهذا الرجل يعـــنى ابـــن تيمية قد تخيل أن الناس بزيارتهم متعرضون للإشراك بالله تعالى، وبنى كلامه كلـــه على ذلك، وكل دليل ورد عليه يصرفه إلى غير هذا الوجه، وكل شبهة عرضت له يستعين بها على ذلك.

فهذا داء لا دواء له إلا بأن يلهمه الله الحق. ألا ترى هو ما زار قصد ذلـــك وأشرك مع الله غيره. انتهت عبارة شفاء السقام . ورأيت للإمام السبكى عبـــارة

فى هذا الشأن، وهى موجودة الآن بخط يده فى المكتبة الخالدية فى القدس الشريف، وقد أرسلت فاستكتبتها، وهذه صورتها بحروفها.

قال رحمه الله تعالى فى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة وقفت على كتاب "العقل والنقل" لابن تيمية وهو كتاب (موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول) المطبوع على هامش كتاب منهاج السنة النبوية فكلاهما لابن تيمية، فوجدت فيه مواضع أنكرتها وكتبت على بعضها حواشى فتحركت أنوف خلق له ففكرت فى انتشار أصحاب هذا الرجل، وما يخشى من انتشار بدعته وعدم من يقاومهم، فكتبت فى ليلة السبت عاشر شوال سنة إحدى وخمسين وسبعمائة رقعة إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأل الله فيها ذلك ، وفى آخرها إن كنت مصيباً فى اعتقادى فقونى، وإن كنت مخطئاً فاهدنى، ثم أصبحت ودفعتها للشيخ نور الدين السخاوى ليحملها فإنه عزم على الحج، وكان ذلك قبل الظهر، فلما كان الظهر جاءنى شخص فأخبرنى عن ابن تيمية بخبر يوجب شوطى فيه، وكنت سمعت عنه من شخص مسألة من نحو أربعين سنة فلم أصدقها، فلما تابعه هذا وقع فى قلبى صحة ذلك، ثم جاء آخر وآخر وآخر بمثل ذلك.

ثم نظمت قصيدة أرسلتها مع الشيخ نور الدين أيضاً، فلما أكملت نظمها فى ليلة الاثنين ثانى عشر الشهر المذكور وقع فى قلبى أن الله تعالى ما هيأ لى تلك الأخبار فى ذلك اليوم إلا هداية وجواباً عما سألت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانظر هذه القضية ما أعجبها وفضل رسول الله صلى الله عليه وسلم علىّ، وها أنا أذكر نص ما كتبته فى تلك الورقة وما نظمته إن شاء الله، والمرجو من الله إرسالهما ووصولهما إلى النبى صلى الله عليه وسلم ونجحهما إن شاء الله.

أما الورقة فنص ما فيها: بسم الله الرحمن الرحيم إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .. يا رسول الله إنى عبد ضعيف عاجز مسكين وجميع ما حصل لى من خير الدنيا والآخرة أنت كنت سببه وأنت وسيلتى إلى الله سبحانه: وإنى نشأت على دين الإسلام سالماً عن الشبه والبدع والأهوية والأغراض والميل إلى جانب من الجوانب، لا أعرف غير أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً

رسول الله، ثم اشتغلت بالقرآن ثم بالفقه على مذهب الإمام الشافعى لا أعـرف غير ذلك ولم أسمع ولم يدخل فى قلبى شىء غير ذلك لا مـن العقـائد ولا مـن غيرها، ثم اشتغلت بنحو وأصول فقه وفرائض، ثم بعلم الحديث ذا تصويب فيـه إليك.

ثم نظرت فى شىء من العلوم العقلية واشتغلت بعلم الكلام علـى طريقـة الأشعرى لأنها المشهورة فى بلادنا التى رأيت عليها أهلى وقومى وبقيت أراهـا طريقة وسطى بين الحشو والاعتزال، ولا زلت على تلك حتى جاوزت عشـرين سنة من عمرى وأنا بالديار المصرية فشاع عندنا خبر ابن تيمية وما يتفـق لـه بدمشق، وكان بها إذ ذاك علماء يقاومونه.

وفى مصر والقاهرة علماء وأكابر فأحضروه واتفق له ما اتفق بسبب العقائد؛ ثم كتبت كلامه فى التوسل والاستغاثة، وتكلم معه من هو أكبر مـنى ورأيتـه واجتمعت به كثيراً ثم عاد إلى الشام، ثم بلغنا كلامه فى الطلاق، وأن من علـق الطلاق على قصد اليمين ثم حنث لا يقع عليه طلاق، ورددت عليه فى ذلك.

ثم بلغنا كلامه فى السفر إلى زيارتك ومنعه إياه ورددت عليه فى ذلك، ثم تـوفى وله أصحاب كثيرون يشيعون رأيه وينشرون تصانيفه، وجئت إلى دمشـق كمـا يقال نائب شريعتك، ومن لى برضاك بذلك فأنا أقل عبيدك مسكت عن الكـلام فى العقائد من الجانبين لأنى فى نفسى أن عقولنا تضعف عن إدراك سبحات الحـق جل جلاله، وأرى البقاء على الفطرة السليمة والاكتفاء بالإيمان بـالله وملائكتـه وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن لا ينبه العوام لشىء آخر، ومن كان عالماً ينظـر بما يتيسر له، والمعصوم من عصم الله. لكن الطلاق والزيارة أنا شـديد الإنكـار لقول ابن تيمية فيهما ظاهراً وباطناً، والعقائد لا يعجبنى ما اعتمده فيها من تحريـك قلوب العوام فيها، انتهت عبارة الإمام السبكى بحروفها، وهى مكتوبة بخطه بـلا نقط، وهكذا جاءتنى صورتها فنقطتها، أما القصيدة التى ذكرها فغير موجودة .

ومنهم الحافظ ابن حجر العسقلانى الشافعى الذى اتفقت الأمة بأسرها حـتى الوهابية التابعون مذهب ابن تيمية ، على جلالة قدره وغزارة علمه وتبحـره فى علم الكتاب والسنة وأنه خاتمة الحفاظ لم يأت بعده مثله . قال رحمه الله تعـالى فى

(فتح البارى شرح البخارى) عند قول النبى صلى الله عليه وسلم [لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد] بعد أن ذكر أن السبكى رد على ابن تيمية فى مسألة تحريمه شد الرحل إلى زيارة قبر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقره على ذلك ما نصه وهى من أبشع المسائل المنقولة عن ابن تيمية.

ومن جملة ما استدل به على دفع ما ادعاه غيره من الإجماع على مشروعية زيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم ما نقل عن مالك أنه كره أن يقول زرت قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد أجاب عنه المحققون من أصحابه بأنه كره اللفظ أدباً، لا أصل الزيارة، فإنها من أفضل الأعمال وأجل القربات الموصلة إلى ذى الجلال وأن مشروعيتها محل إجماع بلا نزاع، والله الهادى إلى الصواب. قال بعض المحققين قوله: إلا إلى ثلاثة مساجد المستثنى منه محذوف. فإما أن يقدر عاماً فيصير لا تشد الرحال إلى مكان فى أى أمر كان إلا إلى الثلاثة، أو أخص من ذلك لا سبيل إلى الأول لإفضائه إلى سد باب السفر للتجارة وصلة الرحم وطلب العلم وغيرها فتعين الثانى . والأولى أن يقدر ما هو أكثر مناسبة ، وهو لا تشد الرحال إلى مسجد للصلاة فيه إلا إلى الثلاثة ، فبطل بذلك قول من منع شد الرحال إلى زيارة القبر الشريف وغيره من قبور الصالحين، والله أعلم. انتهت عبارة فتح البارى .

وقال الحافظ ابن حجر أيضاً فيما كتبه على الرد الوافر على من زعم أن من أطلق على ابن تيمية شيخ الإسلام كافر للحافظ ابن ناصر الدمشقى كما نقله الصفى البخارى فى (القول الجلى) : ولقد قام على الشيخ تقى الدين جماعة — يعنى ابن تيمية — مراراً بسبب أشياء أنكروها عليه من الأصول والفروع وعقدت له بسبب ذلك عدة مجالس بالقاهرة وبدمشق، ولا يحفظ عن أحد منهم أنه أفتى بزندقته ولا أفتى بسفك دمه مع شدة المتعصبين عليه رحمه الله تعالى من أهل الدولة حتى حبس بالقاهرة ثم بالإسكندرية، ومع ذلك فكلهم معترف بسعة علمه وكثرة ورعه وزهده ووصفه بالسخاء والشجاعة وغير ذلك من قيامه فى نصر الإسلام والدعاء إلى الله فى السر والعلانية، فكيف لا ينكر على من أطلق عليه أنه كافر بل من أطلق على من سماه بشيخ الإسلام الكفر، وليس فى تسميته

بذلك ما يقتضى ذلك فإنه شيخ الإسلام بلا ريب، والمسائل التى أنكرت عليه ما كان يقولها بالتشهى ولا يصر على القول بها بعد قيام الدليل عليه عناداً، وهذه تصانيفه طافحة بالرد على من يقول بالتجسيم والتبرى منه، ومع ذلك فهو بشر يخطئ ويصيب، فالذى أصاب فيه وهو الأكثر يستفاد منه ويترحم عليه بسببه، والذى أخطأ فيه لا يقلد فيه ، أى كمسألة الزيارة والطلاق. انتهى ما أردت نقله من كلام الحافظ ابن حجر .

ومنهم السيد صفى الدين الحنفى البخارى نزيل نابلس ألف كتاباً مستقلاً سماه (القول الجلى فى ترجمة الشيخ تقى الدين بن تيمية الحنبلى) ذكر فيه مناقبه وكلام العلماء فى الثناء عليه، ذكر كاتبه فى آخره أنه انتهى تأليفه سنة 1223هـ ، وقرظ عليه علماء ذلك العصر كالشيخ عبد الرحمن الكزبرى الدمشقى والشيخ محمد التافلاتى المغربى مفتى القدس، وهو مطبوع على هامش كتاب (جلاء العينين فى محاكمة الأحمدين) للسيد نعمان الآلوسى البغدادى.

قال صفى الدين فى كتابه المذكور، قد نص على أنه، أى ابن تيمية، بلغ رتبة الاجتهاد جمع من العلماء ولم يتفرد بمسألة منكرة قط وإن كان قد خالف الأئمة الأربعة فى مسائل فقد وافق فيها بعض الصحابة أو التابعين ، ومن أشنع ما وقع له مسألة تحريم السفر إلى زيارة القبور، وقد قال به قبله أبو عبد الله بن بطة الحنبلى فى الإبانة الصغرى، ثم قال صفى الدين فى موضع آخر من كتابه المذكور: فإن قلت ما نقلته فى هذا الجزء يدل على براءة الشيخ مما نسب إليه : يعنى من التشبيه والتجسيم فما بال على القارئ والتقى الحصنى وابن حجر الهيثمى وغيرهم ينسبونه إلى أمور فظيعة .

قلت: اعلم وفقك الله تعالى أن ابن تيمية رحمه الله تعالى كان رجلاً مشهوراً بالعلم والفضل وحفظ السنة، وكان مبالغاً فى مذهب الإثبات وكان يكره التأويل أشد الكراهة، وكان يرد على الصوفية ما ذكروه فى كتبهم من وحدة الوجود وما شاكلها كعادة أهل الحديث والفقهاء والمتكلمين، فرد على الشيخ محيى الدين بن العربى والشيخ عمر بن الفارض وعبد الحى بن سبعين وأضرابهم، وكان قد خالف الأئمة الأربعة فى بعض الفروع كمسألة الزيارة والطلاق،

وكان يناظر عليهما، فقام عليه ناس وحسدوه وأبغضوه وأشاعوا عنه ما لم يقلـه من التشبيه والتجسيم وغير ذلك، فدخل ذلك على بعض أهل العلم من الحنفيـة والشافعية وغيرهم ولم يطلبوا تحقيق ذلك من كتبه المشهورة واعتمـدوا علـى السماع، فوقع منهم ما قد وقع، وقد وقع مثل هذا لغير واحد من أهل العلـم والفضل، ثم قال وقد أنكروا على الشيخ أشياء لا بأس بذكر الجـواب عنـها والاعتذار فأقول : قالوا يقول بحرمة السفر إلى زيارة القبور ، وقـد خـالف فى ذلك الإجماع .

قال صفى الدين : قلت وهو مخطئ فى ذلك أشد الخطأ : ولكن لا يلزم مـن القول به التفسيق فضلا عن التكفير لأنه صدر ذلك عن شبهة ولو كان ذلـك الدليل خطأ عندنا. انتهى كلام صفى الدين البخارى، ومثله العلماء الذى أثنـوا على ابن تيمية ذكروا خطأه الفاحش فى مسائله التى خالف فيها الإجماع.

ومنهم الحافظ عماد الدين بن كثير الشافعى، قال رحمه الله تعالى: وبالجملـة كان يعنى الحافظ ابن القيم كما يدل عليه سياق كلامه رحمه الله تعالى من كبـار العلماء من يخطئ ويصيب، ولكن خطؤه بالنسبة إلى صوابه كنقطة فى بحر لجـى، وخطؤه أيضا مغفور له لما صح فى صحيح البخارى [إذا اجتهد الحاكم فأصـاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر].

وقال الإمام مالك ابن انس : كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا صـاحب هذا القبر صلى الله عليه وسلم، وما قاله فى غاية الحسن ، والحافظ المذكور ثقة حجة باتفاق، وقد ترجمه الحافظ ابن حجر بترجمة جليلة جدا فلا التفات إلى مـا نقله عنه الشيخ تقى الدين الحصنى . نعم كان يقول بقول الشيخ ابن تيميـة فى مسألة الطلاق فأوذى بسببه، ومع أنه خالف الأئمة الأربعة فى ذلك فلم ينفـرد به كما هو مبين فى موضعه، وهو وإن كان خطأ فاحشا فلا يوجـب التفسـيق فافهم. انتهت عبارة القول الجلى .

ومنهم شيخ الإسلام صالح البلقينى الشافعى . قال فى القول الجلى : وقـال شيخ الإسلام صالح ابن شيخ الإسلام عمر البلقينى رحمهما الله تعالى فيما كتبـه على كتاب (الرد الوافر): ولقد افتخر قاضى القضاة تاج الدين السبكى بـأن

الحافظ المزى لم يكتب لفظة شيخ الإسلام إلا لأبيه ، وللشيخ تقى الدين ابن تيمية وللشيخ شمس الدين أبى عمر، فلولا أن ابن تيمية فى غاية العلو فى العلم والعمل ما قرن ابن السبكى أباه معه فى هذه المنقبة التى نقلها، ولو كان ابن تيمية مبتدعاً أو زنديقاً ما رضى أن يكون أبوه قريناً له.

نعم قد ينسب الشيخ تقى الدين لأشياء أنكرها عليه معارضوه وانتصب للرد عليه الشيخ تقى الدين السبكى فى مسألتى الزيارة والطلاق وأفرد كلاً منهما بتصنيف ، وليس فى ذلك ما يقتضى كفره ولا زندقته أصلاً، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر، والسعيد من عدت غلطاته وانحصرت سقطاته، ثم إن الظن بالشيخ تقى الدين أنه لم يصدر ذلك منه تهوراً وعدواناً حاش لله، بل لعله لرأى رآه وأقام عليه برهاناً، ولم نقف إلى الآن بعد التتبع والفحص على شيء من كلامه يقتضى كفره ولا زندقته . انتهى .

ومنهم الحافظ جلال الدين السيوطى الشافعي. قال الصفى البخارى فى القول الجلى بعد أن ذكر بعض من اعترضوا على ابن الفارض: وأما الذى فى اعتقادنا فابن الفارض رجل كبير عظيم المقدار وكان شيخنا الجلال السيوطى مع ذمه القول بالوحدة المطلقة يعتقد فيه ، وصنف جزءاً وسماه (قمع المعارض لابن الفارض) وذكر على هامش كتاب (جلاء العينين) المطبوع ما نصه، وهو — أى الجزء الذى صنفه السيوطى فى ابن الفارض — جزء نحو خمس ورقات ذكر فيه أهل الفنون الشرعية والعقلية وأهل المذاهب الأربعة وتكلم على كل فريق منهم بما أداه إليه نظره، فقال فى أثناء الكلام على الفقهاء الشافعية: واحذر الكبر والعجب بعلمك فيا سعادتك إن نجوت منه كفافاً لا عليك ولا لك.

فوالله ما رمقت عينى أوسع علماً ولا اقوى ذكاءً من رجل يقال له ابن تيمية مع الزهد فى المأكل والملبس والنساء، ومع القيام فى الحق والجهاد بكل ممكن، وقد تعبت فى رزيته وفتنته حتى مللت فى سنين متطاولة فما وجدت قد أضروه فى أهل مصر والشام ومقتته نفوسهم وازدروا به وكذبوه وكفروه إلا بالكبر والعجب وفرط الغرام فى رياسة المشيخة والازدراء بالكبار .

فانظر كيف وبال الدعاوى ومحبة الظهور ونسأل الله المسامحة، فقد قام عليه

ناس ليسوا بأورع منه ولا أعلم منه ولا أزهد منه ، بل يتجاوزون عن ذنوب أصحابها وآثام أصدقائهم وما سلطهم الله عليه بتقواهم أو جلالتهم بل بذنوبه، وما دفع الله عنه وعن أتباعه أكثر، وما جرى عليهم إلا بعض ما يستحقون، فلا تكن فى ريب من ذلك، وقال أيضاً فى أثناء الكلام على أصول الدين : فإن برعت فى الأصول وتوابعها من المنطق والحكمة والفلسفة، وآراء الأوائل ومجاراة العقول ، واعتصمت مع ذلك بالكتاب والسنة وأحوال السلف، ولفقت بين العقل والنقل، فما أظنك فى ذلك تبلغ رتبة ابن تيمية ولا والله تقاربها.

وقد رأيت ما آل أمره إليه من الحط عليه والهجو والتضليل والتكفير بحق وبباطل ، فقد كان قبل أن يدخل فى هذه الصناعة منورا مضيئاً على محياه سيما السلف، ثم صار مظلماً مكسوفاً عليه قتمة عند خلائق من الناس، ودجالاً أفاكاً كافراً عند أعدائه، ومبتدعاً فاضلاً محققاً بارعاً عند طوائف من عقلاء الفضلاء، وحامل راية الإسلام، وحامى حوزة الدين، ومحيى السنة عند عموم أصحابه هو ما أقول لك ، انتهت عبارة الحافظ السيوطى. قال كاتبها صديق حسن خان البهوبالى : فأنت ترى كلامه فى الشيخ فزنه بعقلك فإنه ظاهر التناقض ، والله أعلم بالسرائر .

وقد وزنت كلام السيوطى بعقلى فلم أجد فيه تناقضاً، ولكنه حكى ما يعلمه من أحوال ابن تيمية، فمدحه تارة ، وذمة تارة أخرى بحسب أوصافه التى تقتضى المدح والذم، وليس فى ذلك شيء من التناقض ، رحمهما الله تعالى .

ومنهم الشيخ عبد الرحمن الكزبرى الدمشقى الشافعى . قال فى تقريظه على كتاب (القول الجلى) للصفى البخارى المذكور سابقاً بعد أن أثنى على ابن تيمية: وأن ما يعزى إليه من بعض المخالفات فى الأصول والابتداع هو منه بريء كما يصرح به النقل من كلامه فى مشهور مؤلفاته الدال على أنه بموافقة أهل السنة حرى، وما يعزى إليه من المخالفات فى بعض الفروع والطعن فى السادة الصوفية أولى الشأن العلى المعروف، فذلك مما لا نوافقه عليه ولا نسلم شيئاً من ذلك إليه "والله يقول الحق وهو يهدى السبيل" انتهى كلام الكزبرى، وبه يتم ما نقلته من كتاب (القول الجلى) للشيخ صفى الدين البخارى وتقاريظه.

ومنهم ملا على القارئ الحنفى . قال فى شرحه على الشفاء : وقد فرط ابن تيمية من الحنابلة حيث حرم السفر لزيارة النبى صلى الله عليه وسلم كما أفرط غيره، حيث قال: كون الزيارة قربة معلوم من الدين بالضرورة، وجاحده محكوم عليه بالكفر، ولعل الثانى أقرب إلى الصواب لأن تحريم ما أجمع العلماء فيه بالاستحباب يكون كفراً لأنه فوق تحريم المباح المتفق عليه فى هذا الباب، انتهت عبارته .

ومنهم شهاب الدين الخفاجى الحنفى . قال رحمه الله تعالى فى شرح الشفاء بعد قول النبى صلى الله عليه وسلم [لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد]: واعلم أن هذا الحديث هو الذى دعا ابن تيمية ومن تبعه كابن القيم إلى مقالته الشنيعة التى كفروه بها، وصنف فيها السبكى مصنفاً مستقلاً، وهى منعه من زيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم وشد الرحال إليه وهو كما قيل :

لمهبط الوحى حقاً ترحل النجب وعند ذاك المرجى ينتهى الطلب

فتوهم أنه حمى جانب التوحيد بخرافات لا ينبغى ذكرها، فإنها لا تصدر عن عاقل فضلاً عن فاضل سامحه الله تعالى، انتهت عبارة الشهاب الخفاجى.

وفسر الحديث المذكور بأن القوم الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد : أى يسجدون إليها كما يسجدون للأوثان، وذكر رواية أخرى مصرحة بأولئك القوم، وهى قوله صلى الله عليه وسلم [لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد] ، وأنت على علم من أنه لا أحد من الزائرين يسجد لقبر النبى صلى الله عليه وسلم ، فإن ذلك ممنوع قطعاً بالاتفاق لهذا الحديث وغيره .

وقال أيضاً فى موضع آخر من شرح الشفاء : روى القاضى عياض بسنده على ابن حميد أحد رواة مالك ، قال : ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكاً فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال مالك : يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك فى هذا المسجد فإن الله أدب قوماً، فقال ﴿لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾[1] ومدح قوماً، فقال ﴿الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ﴾ [2] وذم قوماً، فقال (إن الذين

(1) سورة الحجرات: الآية 2 .

(2) سورة الحجرات: الآية 2 .

ينادونك) وإن حرمته صلى الله عليه وسلم ميتاً كحرمته حياً، فاستكان لها أبو جعفر وقال : يا أبا عبد الله استقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه الصلاة والسلام إلى الله تعالى يوم القيامة ، بل استقبله واستشفع به فيشفعه الله.

قال الشهاب الخفاجي : وفى هذا رد على ما قاله ابن تيمية من أن استقبال القبر الشريف فى الدعاء عند الزيارة أمر منكر لم يقل به أحد ولم يرو إلا فى حكاية مفتراة على الإمام مالك : يعنى هذه القصة التى أوردها المصنف القاضى عياض رحمه الله تعالى هنا.

ولله دره حيث أوردها بسند صحيح، وذكر أنه تلقاها عن عدة من ثقات مشايخه، فقوله أى ابن تيمية : إنها أمر منكر كذب محض ومجازفة من ترهاته، وقوله : لم ينقل ولم يرو باطل؛ فإن مذهب مالك وأحمد والشافعى رضى الله عنهم استحباب استقبال القبر الشريف فى السلام والدعاء، وهو مسطر فى كتبهم. انتهت عبارة الشهاب الخفاجى .

وقال أيضاً فى شرح الشفاء عند قول المصنف . وقال صلى الله عليه وسلم [لا تجعلوا قبرى عيدا] أى كالعيد باجتماع الناس عنده، وقد تقدم تأويل الحديث ، وأنه لا حجة فيه لما قاله ابن تيمية وغيره، فإن إجماع الأمة على خلافه يقتضى تفسيره بغير ما فهموه، فإنه نزعة شيطانية، انتهت عبارة الشهاب.

وقوله : وقد تقدم تأويل الحديث: أى فى آخر عبارته السابقة، فإنه قال هناك: وأما قوله صلى الله عليه وسلم [لا تتخذوا قبرى عيداً] ، فقيل كره الاجتماع عنده فى يوم معين على هيئة مخصوصة، وقيل المراد لا تزوروه فى العام مرة فقط بل أكثروا الزيارة له كما مر . وأما احتماله للنهى عنها فهو بفرض أنه المراد محمول على حالة مخصوصة : أى لا تتخذوه كالعيد فى العكوف عليه وإظهار الزينة عنده وغيره مما يجتمع له فى الأعياد ، بل لا يؤتى إلا للزيارة والسلام والدعاء ثم ينصرف .

ومنهم العلامة خليل بن اسحاق المالكى الشهير . قال الإمام القسطلانى فى المواهب اللدنية: وينبغى للزائر أن يكثر الدعاء والتضرع والاستغاثة والتشفع

والتوسل به صلى الله عليه وسلم، فجدير بمن استشفع به أن يشفعه الله فيه أهـ.

قال الإمام الزرقانى فى شرحه بعد ما ذكر : ونحو هذا فى منسك العلامة خليل، وزاد: وليتوسل به صلى الله عليه وسلم ويسأل الله تعالى بجاهه فى التوسل به، إذ هو محط أحمال الأوزار وأثقال الذنوب لأن بركة شفاعته وعظمها عند ربه لا يتعاظمها ذنب، ومن اعتقد خلاف ذلك فهو المحروم الذى طمس الله بصيرته وأضل سريرته. ألم يسمع قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾ [3] الآية أ هـ . ولعل مراده التعريض بابن تيمية، انتهت عبارة الإمام الزرقانى .

ومنهم الإمام محمد الزرقانى المالكى . قال رحمه الله تعالى فى شرحه على المواهب اللدنية عند قول الإمام القسطلانى فيها، والحكاية المروية عنه : أى عن الإمام مالك أنه أمر المنصور أن يستقبل القبر وقت الدعاء كذب على مالك كذا قال : يعنى ابن تيمية، قال الزرقانى تبرأ : أى القسطلانى منه : أى من كلام ابن تيمية فى تكذيب الحكاية.

الحكاية رواها أبو الحسن على بن فهر فى كتابه (فضائل مالك) : ومن طريقة الحافظ أبو الفضل عياض فى الشفاء بإسناد لا بأس به بل قيل إنه صحيح، فمن أين أنها كذب ؟ وليس فى رواتها كذاب ولا وضاع ، ولكنه : يعنى ابن تيمية لما ابتدع له مذهباً، وهو عدم تعظيم القبور ما كانت، وأنها إنما تزار للاعتبار والترحم، بشرط أن لا يشد إليها رحل، صار كل ما خالف ما ابتدعه بفاسد عقله عنده كالصائل لا يبالى بما يدفعه، فإذا لم يجد له شبهة واهية يدفعه بها بزعمه انتقل إلى دعوى أنه كذب على من نسب إليه مباهتة ومجازفة وقد أنصف من قال فيه : عمله أكبر من عقله أ هـ .

وقال الزرقانى أيضاً فى موضع آخر من شرح المواهب عند قول القسطلانى فيها : وقد روى أن مالكاً لما سأله أبو جعفر المنصور العباسى : يا أبا عبد الله أستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدعو أم استقبل القبلة وأدعو ؟ فقال له مالك ولم تصرف وجهك عنه ؟ وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام

---

(3) سورة النساء : الآية 64 .

إلى الله عز وجل يوم القيامة .

قال الإمام القسطلانى : لكن رأيت منسوباً للشيخ تقى الدين بن تيميـــــة فى منسكه إن هذه الحكاية كذب على مالك ، وأن الوقوف عند القبر بدعـــــة، ولم يكن أحد من الصحابة يقف عنده ويدعو لنفسه، ولكن كانوا يستقبلون القبلـــة ويدعون فى مسجده صلى الله عليه وسلم. قال : يعنى ابن تيمية : ومالك مـــن أعظم الأئمة كراهية لذلك، انتهت عبارة متن المواهب .

قال الزرقانى فى شرحه عند قول ابن تيمية : إن هذه الحكاية كـــذب علـــى مالك: هذا تهور عجيب، فإن الحكاية رواها أبو الحسن على بن فهر فى كتابـــه (فضائل مالك) بإسناد لا بأس به، وأخرجها القاضى عياض فى الشفاء من طريقة عن شيوخ عدة من ثقات مشايخه فمن أين أنها كذب ؟ وليس فى إسنادها وضاع ولا كذاب. وقال عند قول ابن تيمية : إن الوقوف عند القبر بدعة ، ولم يكـــن أحد من الصحابة يقف عنده ويدعو لنفسه: نفيه مردود عليه مـــن قصـــوره أو مكابرته .

ففى الشفاء قال بعضهم : رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبى صلى الله عليـــه وسلم ، فوقف فرفع يديه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة فسلم على النبى صلـــى الله عليه وسلم ثم انصرف، وقال عند قول ابن تيمية : ومالك من أعظم الأئمـــة كراهية لذلك : كذا قال ، وهو خطأ قبيح، فإن كتب المالكية طافحة باستحباب الدعاء عند القبر مستقبلاً له مستدبراً القبلة.

وممن نص إلى ذلك أبو الحسن القابسى وأبو بكر بن عبد الرحمن والعلامـــــة خليل فى منسكه ونقله فى الشفاء عن ابن وهب عن مالك قال : إذا سلم علـــى النبى صلى الله عليه وسلم ودعا يقف وجهه إلى القـــبر لا إلى القبلـــة، ويدنـــو ويسلم، ولا يمس القبر بيده أهـــ.

قال الزرقانى : وإلى هذا ذهب الشافعى والجمهور ، ونقل عن أبى حنيفة قـــال ابن الهمام: وما نقل عنه أنه يستقبل القبلة مردود بما روى عن ابن عمر : [مـــن السنة أن يستقبل القبر المكرم ويجعل ظهره للقبلة] وهو الصحيح من مذهـــب أبى حنيفة، وقول الكرمانى مذهبه خلافه ليس شيء لأنه صلى الله عليه وسلم حـــى

ومن يأتى لحى إنما يتوجه إليه أ هـ .

قال الزرقانى : ولكن هذا الرجل : يعنى ابن تيمية ابتدع له مذهباً، وهو عدم تعظيم القبور، وأنها إنما تزار للترحم والاعتبار ، بشرط أن لا يشد إليها رحل ، فصار كل ما خالفه عنده كالصائل لا يبالى بما يدفعه، فإذا لم يجد له شبهة واهية يدفعه بها بزعمه انتقل إلى دعوى أنه كذب على من نسب إليه مجازفة وعدم نصفة، وقد أنصف من قال فيه: علمه أكبر من عقله أ هـ .

ثم بعد عدة أوراق أعاد ذلك فى المواهب : وأعاد الزرقانى الرد على ابن تيمية فقال : قوله ومالك من أعظم الأئمة كراهية لذلك، يقال له فى أى كتاب نص على كراهته، فإنه نص فى رواية ابن وهب عنه، وهو من أجل أصحابه، على أنه يقف للدعاء، وأقل مراتب الطلب والاستحباب ، وجزم به الحافظ أبو الحسن القابسى، وأبو بكر بن عبد الرحمن وغيرهما من أئمة مذهب مالك، وجزم به العلامة خليل بن إسحاق فى منسكه، أفما يستحيى هذا الرجل من تكذيبه بما لم يحط بعلمه ؟ وأعاد قوله السابق فى التشنيع على ابن تيمية أنه صار كل ما خالف ما ابتدعه بفاسد عقله عنده كالصائل إلى آخره .

ومنهم الصلاح الصفدى الشافعى . قال فى شرحه على لامية العجم عند قول الطغرائى:

ولا أهاب الصفاح البيض تسعدنى   باللمح من خلل الأستار والكلل

وسألت الشيخ الإمام العلامة تقى الدين أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى سنة 718 بدمشق المحروسة عن قوله تعالى (وأخر متشابهات) إلى آخر ما قاله هناك من أسئلة وأجوبة لا غرض لنا فى نقلها هنا، وإنما المقصود أنه اجتمع به وذاكره فى العلم، ثم قال الصفدى فى شرح قول الطغرائى :

ويا خبيرا على الأسرار مطلعا   أصمت ففى الصمت منجاة من الزلل

قال القاضى بهاء الدين بن شداد فى أول سيرة صلاح الدين إنه يعنى الشهاب السهروردى المقتول بحلب، كان حسن العقيدة كثير التعظيم لشعائر الدين، قال: وأكثر الناس على أنه ملحد لا يعتقد شيئا وأنه إنما قتلته قلة عقله وكثرة كلامه. ويقال إن الخليل بن أحمد رحمه الله تعالى اجتمع هو وعبد الله ابن المقفع

ليلة فتحادثا إلى الغداة فلما تفرقا قيل للخليل كيف رأيته ؟ قال رأيت رجلاً علمه أكثر من عقله ، وكذا كان ابن المقفع، فإنه قتله قلة عقله وكثرة كلامه شر قتلة ومات شر ميتة. قال الصفدى بعد ما ذكر: قلت وكذا أيضاً كان الشيخ الإمام العالم العلامة تقى الدين أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى علمه متسع جداً إلى الغاية وعقله ناقص يورطه فى المهالك ويوقعه فى المضايق، انتهى كلام الصفدى .

الرد على الوهابية وابن تيمية فى اعتقاد الجهة والجسمية :

ومنهم الإمام عبد الرءوف المناوى الشافعى. قال رحمه الله تعالى فى شرح الشمايل : وقول ابن القيم عن شيخه ابن تيمية : إن المصطفى صلى الله عليه وسلم لما أرى ربه واضعا يديه بين كتفيه أكرم ذلك الموضع بالعذبة رده الشارح: يعنى ابن حجر المكى بأنه من قبيح ضلالهما، وهو مبنى على مذهبهما من إثبات الجهة والجسمية، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

قال المناوى بعد ما ذكر وأقول : أما كونهما من المبتدعة فمسلم. وأما كون هذا بخصوصه مبنيا على التجسيم فغير مستقيم، ثم استدل لرد ذلك كما رده الشيخ على القارى فى شرحه على الشمايل أيضا. وأطال فى الثناء عليهما وتبرئتهما من اعتقاد الجهة والتجسيم، وهو وإن أثنى عليهما من هذه الجهة هنا، لأنه لم يثبت عنده اعتقادهما هذا الاعتقاد الفاسد، بل ثبت عنده من مؤلفاتهما خلافه، فهو قد ذم ابن تيمية فى شرح الشفاء بالعبارة المتقدمة عنه التى ذكر فيها تفريطه بتحريم السفر لزيارة النبى صلى الله عليه وسلم واستقرب كفر القائل بذلك، قائلا[4] لأن تحريم ما أجمع العلماء على استحبابه يكون كفرا.

وهذا من ملا على القارى غاية الذم لابن تيمية فلا ينفع بعده مدحه إياه فى شرح الشمايل من جهة أخرى، وإنما ذكرت عبارة المناوى هنا لأنها مصرحة بأن

---

(4) القول للشيخ على القارى ونلاحظ أنه يكفر ابن تيمية، وابن تيمية يكفر من يرى مشروعية زيارة النبى صلى الله عليه وسلم والتوسل به، وهذا لا يجوز ، بل يجب على المسلمين وخاصة العلماء أن ينزهوا أنفسهم عن تكفير بعضهم بعضا لنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك.

كون ابن القيم وابن تيمية هما من المبتدعة أمر مسلم .

ومنهم صاحبنا العالم العامل الفاضل الكامل الشيخ مصطفى بن أحمد الشطى الحنبلى الدمشقى، ألف، حفظه الله وجزاه أحسن الجزاء، رسالة مخصوصة سماها (النقول الشرعية فى الرد على الوهابية) وختمها بخاتمة فى تأييد مذهب سادتنا الصوفية وطبعها ونشرها.

فمما قاله فى المقالة الأولى منها التى تكلم فيها على الاجتهاد: لا شك أن من أدعى ذلك فى هذا الزمان عليه أمارة البهتان، كما يقع دعوى ذلك من فرقة شاذة نسبت نفسها للحنابلة من جهة نجد التى يخرج منها قرن الشيطان، كما ورد فى الحديث حتى إنهم ربما لا يستدلون بالإجماع ولا بالقياس أصلا، بل يقتصرون على الاستدلال بالكتاب والسنة بلا فهم منهم لشيء من الوجوه السابقة، أى شرائط الاجتهاد، ولا معرفة لهم بمبادئ العلوم فضلا عن مقاصدها وأصولها، ويعلمون أولادهم من إبان نشأتهم هذه الدعوى ويجرئونهم على الاحتجاجات بظواهر النصوص وترك ما وراء ذلك عن جهل ومكابرة، وقد ينكرون دعوى الاجتهاد ويحتجون بعبارة شيخ الإسلام ابن تيمية فقط مع أن الإمام المذكور قد خرج من المذهب الحنبلى فى عدة مسائل تفرد بها وتميأ بخصوصها للاجتهاد المطلق، إلا أنها لم تدون على كونها مذهبا له كما دونت فروع مسائل المذاهب الأربعة . فمنها ما كان يجب المناظرة فيه ولم يفت به لأحد، كمسألة إلغاء مفهوم العدد فى الطلاق وأنه يقع واحدة وإن كان بلفظ الثلاث والألف أو الأكثر من ذلك. ومنها تحريم شد الرحل لغير المساجد الثلاثة. ومنها منع الاستغاثة بالأنبياء والصالحين وغير ذلك مما هو مذكور فى مواضعه . فليست المسائل المذكوورة من مذهب الإمام أحمد ولا ورد فيها رواية عن الإمام أحمد، ونص فقهاء الحنابلة على أنه لا يتابع فيها، فمن ادعى أنه حنبلى المذهب فليس له القول بها كما قالت بها هذه الفرقة المذكورة عن جهل وانطماس بصيرة، وفقنا الله وإياهم لاتباع سبيل المصطفى عليه الصلاة والسلام الداعى إليها على بصيرة هو ومن اتبعه. انتهت عبارة هذا العالم الحنبلى المنصف بحروفها.

وذكر فى المقالة الرابعة من هـــذه الرســالة جــواز التوســل والاســتغاثة والاستشفاع بالأنبياء والأولياء والصالحين حال حياتهم وبعد مماتهم، وأقام الدليل على ذلك من الكتاب والسنة وعبارات العلماء والفقهاء ، ولا ســيما فقــهاء الحنابلة أهل مذهبه.

وذكر حفظه الله فى المقالة الخامسة استحباب زيارة القبور وشد الرحل إليــها لا سيما زيارة قبره الشريف صلى الله عليه وسلم ، ونقل النقــول الصحيحــة الصريحة فى ذلك عن علماء الحنابلة وكتبهم المعتمـــدة : كالمنتــهى والإقنــاع وشرحيهما، وصرح بأن ما قاله ابن تيمية وتلميذه ابن القيم فى منع ذلك هــو خلاف الصحيح من مذهب الإمام أحمد، وأثنى فى خاتمة الكتاب علــى ســادتنا الصوفية رضى الله عنهم وجزاه أحسن الجزاء .

ومنهم الإمام شهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمي المكى الشــافعى : وهــو أشدهم ردا على ابن تيمية محاماة عن الدين وشفقة على المسلمين من أن يســرى إليهم شيء من غلطاته الفاحشة ، ولا سيما فيما يتعلق بسيد المرسلين صلــى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن نظر بعين الإنصاف شــهد لهــذا الإمام ابن حجر بالولاية، وإنه ربما يكون قد أطلعه الله على مــا ســيحصل فى المستقبل(5) من الأضرار العظيمة التى ترتبت على أقوال ابن تيمية مــن فرقتــه الوهابية التى هو أصل اعتقادها وأساس فسادها.

ولا يخفى ما حصل منها من الأضرار العظيمة فى حق المســلمين والإســلام. ولاسيما فى الحرمين الشريفين وجزيرة العرب، فمن المحتمل احتمــالا قريبــا أن يكون الحق سبحانه وتعالى قد أطلع الإمام ابن حجر على ذلك علـــى ســبيل الكرامة وهو أهل لذلك، فإنه رضى الله عنه كان من أكابر العلمـــاء العــاملين والأئمة الهادين المهديين، وهذا علمه وكتبه النافعة التى خدم بها الأمة المحمديــة خدمة لم يشاركه فيها سواه من عصره إلى الآن ملأت الدنيا وانتفع بها الخــاص والعام فى جميع بلاد الإسلام، ومن كان كذلك لا يستبعد عليــه أن يكــون الله

(5) ليس هناك دليل شرعى على مثل هذه الأمور ، والأفضل أن تكون آراؤه اجتهادا منه وليس إطلاعــا على الغيبيات.

تعالى قد أكرمه بإطلاعه على بعض المغيبات، ومنها ما حدث من فرقة الوهابية أتباع ابن تيمية من المضار العظيمة على الشريعة المحمدية والملة الإسلامية، ولذلك كان رضى الله عنه أشد أئمة المسلمين إنكارا لبدع ابن تيمية وردا عليه بأشد العبارات شفقة على المسلمين ومحاماة عن هذا الدين المبين ؛ وله فى ذلك عبارات كثيرة فى كتبه، ولاسيما فى الفتاوى الحديثة، ولم أر حاجة إلى نقلها هنا، فمن شاءها فليراجعها .

فقد ثبت وتحقق وظهر ظهور الشمس فى رابعة النهار أن علماء المذاهب الأربعة قد اتفقوا على رد بدعة ابن تيمية، ومنهم من طعنوا بصحة نقله كما طعنوا بكمال عقله، فضلا عن شدة تشنيعهم عليه فى خطئه الفاحش فى تلك المسائل التى شذ بها فى الدين وخالف بها إجماع المسلمين ، ولا سيما فيما يتعلق بسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم.

وممن طعن بصحة نقله من الحنفية الشهاب الخفاجى فى شرح الشفاء كما تقدم ، ومن المالكية الإمام الزرقانى فى شرح المواهب كما تقدم أيضا، ومن الشافعية الإمام السبكى كما هو مذكور فى كتابه (شفاء السقام).

فقد أوضح فيه، مع توضيح خطأ ابن تيمية فى رأيه، عدم صحة نقله أحكاما شرعية استدل بها على تقوية بدعته ونسبها إلى علماء من أئمة المذاهب الأربعة لم يقولوا بها، وذكر مثل ذلك عدم صحة نقله الإمام ابن حجر الهيثمي فى ردوده عليه، ولا يخفى أن ذلك من أقوى العيوب فى العالم وأشنع الأخلاق التى تضعف الثقة به وتسقط اعتبار نقله عن غيره، وإن كان من أحفظ الحفاظ وأعلم العلماء، ويقوى عدم اعتبار نقل ابن تيمية فى بعض ما ينقله ما قاله فى حقه الحافظ العراقى الكبير .

فهرس